الفصل الأول

تدهور المسلمين

١ — حالة المسلمين فى العصر الأخير

١ — الاستعمار والمسلمون :

لقد أخذت بلاد المسلمين فى الانحطاط منذ عهد ليس بالقريب ، وربما كان أشد البلاء الذى نزل بأهلها أنهم لم يفطنوا إلى تدهورهم ، ولم يتبينوا أنهم ابتعدوا عن نهج الحضارة الواضح ، فاتخذوا لأنفسهم طريقاً ينحدر بهم ، وهم يظنون ، لجهلهم وغفلتهم ، أنهم هم الصاعدون السابقون . ومما جعل هذا الوهم يبدو حقيقة فى أعينهم أنهم كانوا ينتفضون بين آونة وأخرى ، فتدب فيهم الحمية والنخوة ، وتسرى فيهم روح أسلافهم ، فيهزمون أهل الصليب الذين أغاروا على بعض بلادهم ؛ أو تجوس جنودهم خلال بلاد أوروبا عندما استطاع الأتراك أن يشيدوا أمبراطوريتهم الكبرى . لكن لم يكن هذا الملك العريض يعتمد على غير القوة والقهر ، ولذا كان يحمل جرثومة فنائه بين ثناياه . فلما آن لموجة القوة أن تنحسر أجمعت دول أوروبا أمرها على تمزيق أوصال الخلافة العثمانية ، وتوزيع حطامها ؛ فسقطت الجزائر فى يد فرنسا ، ثم هوت مصر فى قبضة انجلترا ، وتهاوت الممالك الإسلامية ، واحدة بعد أخرى ، فى حوزة الأعداء على النحو الذى ما زلنا نلمس كثيراً من آثاره حتى يومنا هذا .

ولم يكن بد للمسلمين من أن يتركوا وهمهم وغرورهم بعد أن اشتد بهم

ضغط البلاد الاستعمارية ،ولاسيما بعد أن تكشفت لهم أهداف هذه الدول المسيحية بالاستيلاء على مصر ، وهى باب الحرمين . فعم الحزن واستيقظت الشعوب الغافلة الخاملة ، ونشط مفكروها ، وبدأوا يدرسون أدواء الشرق ، ويحاولون ، إن استطاعوا ، أن يدفعوا عن ديارهم شرّه الأجانب ، وأن يستعيدوا ما فقدوه .. وأصبح الحديث عن ضعف المسلمين وسوء حالهم حديثاً لا تنفر منه النفوس ولا تضيق به أو تغضب له ؛ بل جعلت تقبل عليه وتطمئن لسماعه ، وربما وجدت فيه نوعاً من الرضا والمتعة ،كالمريض الذى يحلو له أن يكشف عن علته عسى أن يجد سبيلا إلى شفائها .

لقد صحا المسلمون من نومهم،فوجدوا أنهم كثرة، ولكنها كثرة لاتغنى عنهم شيئاً . فهم مستعبدون فى الأرض : تتحكم فى كل قطر من أقطارهم شرذمة قليلة من جند الأجانب وحكامهم وتجارهم ؛ تسومهم الخسف ، وتحتكر موارد الثروة عندهم ، وقد تنصب عليهم ولاة أو ملوكا أشبه بلُعب الدمى ، يحركونها كيفما شاءوا ، ويستخدمونها فى فرض سلطانهم على رعايا لا حول لها ولا قوة . وقد بلغ الذل بهذه الرعايا أن فريقاً منها رضى أن يكون من جند الفاتحين ، فأسلم قياده لهم ، وأصبح أداة عسف وقهر لبنى جلدته وملته ، يساق إلى الموت سوقاً ، ويشترك فى حروب خارجية لا نفع له فيها ولا مجد ؛ لأنها تنتهى دائماً بخسرانه ، سواء أكان مع الغالب أم مع المغلوب .

كذلك فجأهم أنهم أبعد الناس عن الحضارة والتقدم،وأدناهم مرتبة فى شئون العمران ، وأقلهم خبرة بالسياسة وتدبير المال واصطناع القوة . فإذا نحن قارنا منصفين بين « إقليمين متجاورين أو ناحيتين فى إقليم أو قريتين أو بيتين فى قرية واحدة أهل أحدهما مسلمون والآخر غير مسلمين إلا ونجد

المسلمين أقل من جيرانهم نشاطاً وانتظاماً فى جميع شئونهم الحيوية الذاتية والعمومية ، كذلك نجدهم أقل إتقاناً من نظرائهم فى كل فن وصنعة . »[١] ولو نحن قارنا مرة أخرى بين الدول الإسلامية والدول المسيحية فى عصرنا الراهن لفزعنا لمقدار انحطاط وتأخر الدول الأولى فى جميع مرافق الحياة : من تعليم وصناعة واقتصاد وعمران وقوة . ولا حاجة بنا إلى الاستطراد بذكر الأمثلة لتوضيح الفارق بيننا وبينهم فى هذه الأمور وغيرها ؛ فإن هذا الفارق أظهر وأوضح من أن يشار إليه . وهو من الظهور والحدّة فى الوضوح بحيث يوهم من لا علم له بحقيقة الإسلام ، أو بمقدار انحراف أهله عنه ، أن هذا الدين كان سبباً فى تدهور معتنقيه . وسنعود إلى هذه المسألة فى موضعها .

لكن يكفينا أن نقرر هنا أن الدول المستعمرة تحاول أن تدخل هذا الوهم فى عقول رعاياها من المسلمين . ولا يجد دعاة الاستعمار حرجا فى أن يقرنوا بين الإسلام والمسلمين فى العصر الحاضر ، ما دام الهدف الذى يريدون تحقيقه ينحصر فى تحطيم آخر رابطة توشك أن توجد بين الشعوب التى يستعمرونها ، ونعنى بها الرابطة الإسلامية . وهم موقنون أنهم لو استطاعوا القضاء على هذه الرابطة لأمنوا على أنفسهم أن تهب تلك الشعوب من ركودها ، فتحطم قيودها ، وتسترد شيئاً من القوة ، فتفلت من قبضتهم ، وربما أصبحت خطراً عليهم . وليس لنا أن نتوقع من هؤلاء المستعمرين أن يسلكوا مسلكا مخالفاً ، طالما بقى الشرق منبعاً ومورداً لرخائهم وقوتهم . وكيف لهم أن يحترموا قوماً من المبذرين السفهاء الذين لا يحجمون أو يترددون فى بيع ديارهم وأملاكهم بثمن بخس لكل غاصب

(١) عبد الرحمن الكواكبى : أم القرى ص ٢١ .

أو طامع ؟ وكيف لا يلصقون بهم ما شاءوا من التهم ، وهم يدّعون فى أثناء ذلك كله أنهم إنما جاءوا إلى ديارهم لا لشىء سوى النهوض بهم واطلاعهم على نتائج الحضارة الحقة ، ويريدون بها حضارتهم ؟ والحق أنهم لا يريدون بهم خيراً ، أو يبغون لهم صلاحاً ؛ إذ ما النفع الذى يعود على الغرب من إصلاح حال المسلمين ومنعهم من السفه ، فإن من أمانيه أن يتمادى الشرق فى غيه وإسرافه ، حتى يطول عهد السيطرة عليه ؟

ولقد سبق أن قارن جمال الدين الأفغانى بين حال المسلمين وحال المسيحيين فى أواخر القرن الماضى ليرى ما السبب فى ضعف الأولين وتقدم الآخرين ، فرأى أن أهل المسيحية حوّلوها عن أصولها الأولى من الوجهة العملية . فبعد أن كانت ديانتهم ديانة زهد وتنسك ، وانصراف عن الدنيا ، وندم وحسرة على الخطيئة الأولى التى أخرجت آدم من الجنة إذ بهم يسخرون الدين من أجل الدنيا ، فيحسنون القيام بأمور دنياهم ، ويفتنّون فيما تتطلبه هذه الحياة من أسباب الترف وألوان الهناء ، وما تقتضيه من الغزو والفتح واحتكار أسواق التجارة . وهكذا اتجه المسيحيون الذين يؤمنون بدين يدعو إلى السلم اتجاهاً مادياً ، وانكبوا على الدنيا ونعيمها ، يفتحون الممالك بالسيف ، ويخرجون على الناس باختراعات متتابعة مذهلة فى أدوات الحرب ، ويعنون بإعداد الجيوش وتدريبها ، حتى بلغوا فى الفن الحربى أقصى مراتبه . ومع ذلك فهم يقولون إن حضارتهم هذه هى الحضارة المسيحية الحقة التى يجب أن يتقبلها البشر فى كل صقع من أصقاع الأرض حتى يكونوا من الناجين .

ولم يكن الأفغانى بعيداً عن الحق فيما رأى . فلقد شهدنا فى الزمن القريب كيف استخدمت أوروبا فكرة الحضارة المسيحية والدفاع عن مثلها العليا

لكى تبعث أبناءها ، وغير أبنائها ، على قتال أعدائها وأعداء هذه الحضارة . أما المسلمون ، فبدلا من أن يعملوا للدين والدنيا جنباً إلى جنب ، كما كانوا يفعلون فى سابق عهدهم ، فإنا نجدهم يصبغون كل شىء بصبغة الدين، حتى أنهم وجدوا لكل من الركود والجمود والانحطاط ما يبرره من الوجهة الدينية ، أى أنهم سخروا دنياهم لدينهم . غير أنهم سخروها لدينهم على النحو الذى يفهمونه[1]. ومن ثم لم يكن عجباً أن خسروا دينهم ودنياهم معاً . ذلك أن دينهم يدعوهم إلى العزة والقوة والغلبة ، ويحثهم على رفض كل قانون يخالف الدين، وينهاهم عن الاعتراف بولاية من لا يستحق الولاية على المسلمين ولكنهم ينفرون من المجد ، ويؤثرون الضعف ، ولا يفكرون فى الدفاع عن أنفسهم، فضلا عن نشر سلطانهم ؛ وهم يتقبلون صاغرين كل قانون ولو كان مخالفاً لشريعتهم ، ويتسابقون للاعتراف بسلطان من ليس على دينهم . لقد كان ينبغى لهم ، حسبما يأمرهم به دينهم ، أن يكونوا أقوى الأمم من الوجهة الحربية . لكن ليست تلك هى حالهم . وهم أعجز عن أن يلبوا دعوة الإسلام إياهم إلى المنعة والعزة . وهم لا يذكرون أنهم مطالبون بحماية ديارهم والدفاع عن إخوانهم فى الدين على اختلاف أجناسهم ، وأنهم لو نكصوا عن أداء هذا الواجب لحق عليهم أن يبوءوا بالإثم . نقول إنهم لا يذكرون ذلك أو قليلا منه ، ثم يظنون أنهم يضحون دنياهم من أجل آخرتهم ، ويخيل إليهم أنهم يتبعون أوامر دينهم ، وأن ما نزل بهم من الكوارث إنما هو من عنت الدهر وعسفه . وفى أثناء ذلك نراهم « يتهاونون بالقوة ويتساهلون فى طلب لوازمها ، وليست لهم عناية بالبراعة فى فنون القتال ولا فى اختراع الآلات ، حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم ، واضطروا

(١) قال أبو العلاء المعرى : وكم من فقيه خابط فى ضلالة .·. وحجته فيها الكتاب المنزل

لتقليدها فيما يحتاجون إليه من تلك الفنون والآلات .» [١] فإذا عجزوا عن مباراة الأمم الأخرى فى هذه السبيل ، وكثيراً ما يعجزون ، بسطوا أيديهم إلى أعدائهم يطلبون إليهم أن يمدوهم بأجهزة القتال وأدواته ، ثم عجبوا أن يضن عليهم هؤلاء الأعداء بالسلاح . وما كان لهم أن يعجبوا ، إذ لو كانوا مكانهم لفعلوا مثلهم .

ب — المسلمون بين عهدين :

وليس أدل على أن المسلمين خسروا دينهم ودنياهم ، على حد تعبير جمال الدين ، مما نراه من تضاد بين صفاتهم وصفات أسلافهم « فنحن لا نحفظ عهدا ، ولا نفى وعداً ، وهكذا مضاؤهم فى العمل وتسويفنا ، إنجازهم وتطويلنا ، صبرهم وجزعنا ، شجاعتهم وإقدامهم جبننا وإحجامنا ، عزة نفوسهم وإباؤهم ذلتنا واستكانتنا ، وإلى ما هنالك من المحزنات . » وهل هناك من يدّعى أننا صادقون فى العمل والقول صدق الأوروبيين فيهما ؟ وهل هناك من يزعم أننا نهرع دائماً إلى نصرة الحق وإزهاق الباطل ، أو أننا نعمل لدنيانا كما يأمرنا ديننا أن نعمل لها ؟ ثم هل هناك من يأتى ، فى آخر الأمر ، ليقول إن ما حلّ بالمسلمين إنما هو قضاء الله وقدره ، وإنه لا قِبَل لهم بدفع ما هم فيه من ضر ، وإن عليهم أن يخلدوا إلى ما هم فيه من ذل وضعف حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ؟ ما نظن ذلك . فقد مضى ، أو كاد يمضى العهد ، الذى كان يحبب فيه نفر من رجال الدين للمسلمين أن يرضوا بما هم فيه من هوان وضعة باسم الدين نفسه ، أو باسم الإيمان بالقضاء والقدر .

---

(١) الدروة الوثقى ص ٧٩ .

إن ما نزل بالمسلمين فيما مضى يرجع فى الأغلب إلى تشويه إحدى العقائد الإسلامية ، ونعنى بها عقيدة القضاء والقدر . ذلك أنهم انصرفوا عن الوجه الصحيح لفهمها ، فكان هذا الانصراف سبباً فى فساد الأخلاق ، وقبح الأعمال . ومما يؤسف له أنه ما برحت هناك جماعة من السذج تحيل كل شىء على القضاء والقدر ، إما لعجزهم ، وإما لرغبتهم عن العمل ، وإما جهلا بحقائق الأشياء . وقد اتخذ الأوروبيون من مسلك هؤلاء السذج ذريعة للطعن فى المسلمين ودينهم ، فقالوا إن المسلمين لم يصلوا إلى ما هم فيه من فقر وتدهور وانحطاط وتخلف عن جميع الأمم الأخرى إلا لإيمانهم بالقضاء والقدر . فإن هذا الإيمان كان سبباً فى كثرة النفاق والرياء والحقد والتباغض والكذب وتفرق الكلمة ، والانصراف عن البحث فى علل الأشياء ومقدماتها . لذلك ليس بعجيب أن أصبح المسلمون من الغفلة إلى حد أنهم لا يفرقون بين ما يضرهم أو ينفعهم . وهذا هو السبب فى تواكلهم وقعودهم عن طلب الخير لأنفسهم وفى قناعتهم بحياة لا تسمو كثيراً عن حياة العجماوات : فهم يأكلون ويشربون وينامون على أسوأ ما يأكل المرء أو يشرب أو ينام . ولا يخطر لهم ببال أن يجدّوا فى العمل وأن ينافسوا غيرهم فيه . ومع هذا فإنهم مغاوير أبطال إذا كان الأمر بصدد إلحاق الضرر بعضهم ببعض . فبقدر عجزهم عن النهوض بأنفسهم ونفورهم من التضحية من أجل الآخرين تراهم يجعلون بأسهم فيما بينهم ؛ فلا رفق ولا هوادة فى الخصومة والرغبة فى الأخذ بالثأر ، بحق أو بغير حق ، بينما تجدهم يتطامنون للأجانب الذين يمدون سلطانهم على أوطانهم ، وينالون من أرزاقهم ما شاءوا ، ويسخرونهم كما يسخر العبيد . وأدهى من ذلك أنهم قد يرون ذلك عدلا وخيراً ، أو قضاء وقدرا .

فهم جماعة رضوا به لأنفسهم الذل ، ووطنوا النفس على قبول الضيم : يقنعون بالقليل الذى يلقى به إليهم . أما ملوكهم وأغنياؤهم وذوو الأمر منهم فلا يعنون إلا بأنفسهم ، ويحسبون أن القضاء والقدر قد كتب لهم أن ينعموا بلهوهم وتلبيته رغباتهم وشهواتهم . وهم قد لا يحمدون الله إلا لأنه لم يجعلهم من فئة الفقراء الجائعين . فإذا بقى لأمير أو ملك منهم ، بعد اللهو واللعب واغتصاب حقوق رعاياه ، فسحة من الوقت سخرها للنزاع مع أمير يشاكله فى أمره وخلقه . وكثيراً ما يعجز المتنازعان عن أن ينال كل من صاحبه ؛ فلا يجد أحدهما حرجا فى أن يستظهر الأجنبى على خصمه يرجو لديه عوناً . فلا يجد الدخيل أمامه قوة تردعه ، فينال من الخصمين ما أراد ، دون أن يكون فى حاجة إلى استخدام عدد ولا عدّة . تلك هى حال أمراء المسلمين فى عصر جمال الدين ، وما أشبه أن يصدق قوله على حالهم فى عصرنا . فإنهم كما يقول جماعة من المترفين « شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور ، يفزعون من الهمس ويألمون من اللمس ، قعدوا عن الحركة إلى ما يلحقون به الأمم فى العزة والشوكة . » وقد تقطعت بينهم الروابط فلا نجدة ، ولا محاولة للاتحاد للوقوف جبهة واحدة ، وانما هم أحزاب وشيع يظنون بأنفسهم القوة ، وهم لا يعلمون أنهم الخاسرون جميعاً ، وأن عدوهم هو الذى يحركهم ، ويؤلف بينهم متى يشاء ، ويفرق بينهم متى أراد .

وفيما بين عصر جمال الدين وعصرنا ما برح كثير من المسلمين يغررون بأنفسهم ، فيذكرون ماضيهم الذى لم يصنعوه بأيديهم ، لكى ينسوا حاضرهم الذى يتبرأون منه ، ويتعللون بالقضاء والقدر الذى أزاحهم فى زعمهم عن مكان الصدارة ، والذى ربما أعادهم إليه عفوا ، أى دون جهد ينبغى لهم أن يبذلوه . وقديماً ضاق الأفغانى بغرورهم ، فقال لمن يحدثه عن عبور العرب

للمحيط الأطلسى وكشفهم لأمريكا قبل الأوروبيين [1]: « إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان : كونوا بنى آدم أجابوه إن آباءنا كانوا كذا وكذا ، وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ماهم عليه من الخمول والضعة . إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم ! لقد كانوا آباؤكم رجالا ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذاكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم . . . إن المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شىء واحد فيهم هو شهواتهم . » ومع كل ما بذل الأفغانى من عناء فى إيقاظ المسلمين وتحريرهم من الغرور بأنفسهم والتشدق بماضيهم فى غير ما يجدى فإنه كاد لا يفارق هذه الحياة إلا يائساً منهم . وهو يستصرخ أسلافهم الأمجاد فى قبورهم ، لكى ينظروا إلى ما فعله خلفهم ومن يدين بدينهم عند ماحادوا عن الطريق وضلوا السبيل ، وتفرقوا شيعا ، « حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب له القلوب أسفاً ، وتحترق الأكباد حزناً ، أضحوا فريسة للأمم الأجنبية . لا يستطيعون ذودا عن حياضهم ، ولا دفاعا عن حوزتهم . » وهم فيما بين ذلك لاهون يفخرون بما لم يفعلوا ، ويحيلون على الأجيال بعدهم أن تفعل ما يظنون أنهم يعجزون هم عن فعله .

ولقد كانت نفسه تدمى أن يرى كيف ينصرف كثير من الأوروبيين أو الأمريكيين عن الديانة المسيحية التى تعجز عقولهم عن فهمها ، وكيف يبدو لديهم استعداد لقبول دعوة الإسلام ، وبخاصة الأمريكيين منهم لعدم وجود أحقاد دفينة بينهم وبين المسلمين . ومع ذلك فإن حال المسلمين ما كانت

(١) شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامى . ص ٢٩٩ .

لتدفعهم إلى الإقبال على هذا الدين العقلى . ولذا نجده يقول « إذا نحن أردنا أن نحمل غيرنا على الدخول فى ديننا وجب علينا، قبل كل شىء ، أن نقيم لهم البرهان على أننا لسنا متمسكين بخصال الإسلام. » فهل هناك بعد الوصول إلى هذا الحد ما يوجب علينا الاستطراد فى بيان مقدار ما بلغت إليه حال المسلمين من سوء فى ذلك العصر ؟

(ح) الفقر :

وحقيقة كيف تستقيم أمور كثير من الدول الإسلامية ، وقد عمها الفقر ، وشملها البؤس ، وغلب على أهلها ملوك مستبدون يتخذون أعوانهم وبطانتهم إما من رجال أجانب أو من قوم زعموا أنهم قوامون على الناس فى عقائدهم وخلجات نفوسهم ؟ فاجتمع الفقر مع الاستبداد وسطوة الكهنوت على قوم من البؤساء ، ففسدت عقولهم وشوهت أخلاقهم ، واندثر ما قد عسى أن يكون قد بقى فى نفوسهم من أثر للعزة والنخوة . فانقاد هؤلاء إلا قليلا منهم انقياد الأعمى، واستحبوا ذلهم على الكرامة ؛ بل ربما يبلغ من فساد طباعهم أنه لو نفرت منهم طائفة تؤمن بالله والوطن ، وأخذت ترشدهم وتحررهم مما هو فيه هوان لظنوا بها السوء ،ولنسجوا حول أعمالها ستاراً من الأباطيل، ولبرموا بها وحاولوا الوقوف أمامها إما حقداً وحسداً ، وإما لكى يعودوا القهقرى إلى ما كانوا فيه من هوان . وقد تدفعهم سذاجة التفكير وسقم الرأى إلى الاتحاد مع أنصار القديم ، فيعضدونهم ويحاولون جاهلين مساعدة أعوان الاستبداد السياسى والاقتصادى الذين يغررون بهم بأسماء زائفة ، كالعدل والمساواة والحرية. كل ذلك لأن طول عصور الاستبداد التى خنعوا

لها أفسدت طباعهم ، وقضت أو كادت تقضى على معايير الحق والخير فى نفوسهم .

ولا يملك المرء إلا أن يعجب لتلك الأمم الإسلامية التى تتحدث عن ماضيها ما وسعها الحديث ، وتتشبث بالأوهام والأحلام ، وتشكو حظها العاثر ، وتئن من الاستبداد ، وتبدى فى الشكوى وتعيد . كل ذلك وهى لا تفطن إلى أن ما هى فيه من ضنك يرجع إلى قعودها عن منافسة الأمم الأخرى فى استغلال ثرواتها الطبيعية . فهى بلاد غنية بأرضها فقيرة بأهلها الذين لا يرون أن بناء الأمم لا يكون بالشكوى والنواح ، وإنما يكمل عن طريق العمل الذى يخلق المال ، فيقضى على الجهل ويسمو بالخلق ، ويضع حداً للشقاق والخلاف ، ثم يشعر الناس بكرامتهم ، وأنهم لم يخلقوا لكى يقنعوا بالقليل الذى ربما هبط بهم عن مستوى البهيمة . وهم لا يستحون أن يقال عنهم إن ما يقوم بأود بقرة أو حصان أكثر مما يكفى ليقتات به فلاح مصرى أو عراقى أو سودانى . وليس أحب إلى قلوب المستبدين من أن يكون رعاياهم فقراء جهلاء راضين بالقضاء والقدر . فإذا بدأت الشعوب تعمل ، وتربأ بنفسها أن تكون هملا ، غرّر بها حكامها فأدخلوا نظاماً نيابياً ليس بينه من شبه وبين مثيله فى البلاد الأوروبية سوى الاسم ؛ إذ أن القوانين تطبق بحيث تجمع الأموال من الفقراء، لكى ينعم بها الأغنياء والمسرفون السفهاء .

هذا إلى أن يقظة الشعوب الإسلامية فى مثل هذه الأحوال يمكن أن توصف بأنها إحدى المعجزات . فقد تشابكت الأسباب على قتل كل استعداد لدى الأفراد الممتازين الذين يرجى منهم الخير ؛ إذ كيف يوجد أمير عادل

أو زعيم مصلح فى أمم تحالف عليها الاستبداد والفقر . وقد صور لنا عبد الرحمن الكواكبي فى كتابه طبائع الاستبداد كيف ينشأ الفقير فى دولة الظلم، فقال : « إذا افتكرنا كيف ينشأ الأسير فى البيت الفقير ، وكيف يتربى نجد أنه يلقّح به ، وفى الغالب أبواه متنا كدان متشاكسان ، ثم إذا تحرك جنيناً حرك شراسة أمه فشتمته .. فإذا نما ضيقت عليه مقرّه لألفتها الانحناء خمولا .. أو التقلص لضيق الفراش . ومتى ولدته ضغطت عليه بالقماط اقتصادا أو جهلا . فإذا بكى سدت فمه بثديها . . . أو سقته مخدراً عجزاً عن نفقة الطبيب . فإذا ما فطم يأتيه الغذاء الفاسد يضيق معدته ويفسد مزاجه . فإن كان طويل العمر وترعرع يمنع من رياضة اللعب لضيق البيت . فإن سأل واستفهم ليتعلم يزجر ويُلكم لضيق خلق أبويه . فإذا قويت رجلاه يدفع به إلى خارج الباب إلى مدرسة الألفة على القذارة ، وتعلّم صيغ الشتائم والسباب . فإن عاش وضع فى مكتب أو عند ذى صنعة . ويكون أكبر القصد ربطه عن السراح والمراح . فإذا بلغ الشاب ربطه أولياؤه على وتد الزواج ، كيلا يبرح يقاسمهم شقاء الحياة ويجنى على غيره كما جنى عليه أبواه . . ويتولى المستبدون الضغط والتضييق على عقله ولسانه وعمله وأمله . وهكذا يعيش الأسير من حين يكون نسمة فى ضيق وضغط ، ويهرول ، ما بين وداع سقم واستقبال سقم ، إلى أن يستقبله الموت، مضيعا دنياه مع آخرته ، فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه . »

حقاً قد تكون هذه اللوحة التى رسمها الكواكبي قاتمة تبعث اليأس ، لكنها كانت صادقة فى عصره ، بل قبله بعدة قرون ، ومازالت تنطبق للأسف على ملايين من المسلمين فى الوقت الحاضر .

(٤) الجهل :

وللفقر فى البلاد الإسلامية حليف ليس أقل منه خطراً وقهراً ، وهو الجهل . فالعلوم الحديثة لم تطرق دور الدراسة إلا بعد جهد وصراع طويلين ، وإلا بعد مقاومة رجال الدين الذين يحرصون عادة على إبقاء القديم على قدمه ، إما خوفاً على نفوذهم أن ينحسر عن أفئدة العامة ، وإما طمعاً فى التقرب إلى الحكام المستبدين الذين يحسبون أن سلطانهم لا يستقر ولا يزدهر إلا بفضل الجهالة الشاملة . وإذا تطرقت هذه العلوم إلى عقول طبقة من الشعب ، غير مشوهة أو محرفة ، فإنها لا تغنى عنهم إلا القليل ؛ فإن هناك نوعا من الجهل العاتى الذى صنعه السابقون فأحكموا صنعه ، على غير ما جرت به عادتهم فى فنونهم الأخرى ، ونعنى به جهل النساء . وكفى بهذا الجهل سبباً فى إفساد كل شىء ، وفى خيبة الرجاء فى الأجيال القادمة . فلقد ظن المسلمون فى عصور تدهورهم أن الحجاب معناه حرمان نصف المجتمع ، أو أكثر من نصفه ، من حقوقه الاجتماعية والروحية والعقلية . واعتقدوا أن صلاح حالهم إنما يكون بأن تعامل المرأة معاملة الرقيق ، وأن يُضيق عليها الخناق حتى يُؤمن شرها وكيدها . فتولد الأنثى فلا ترى الحياة إلا طفلة حتى إذا كادت تدرك حبسها أهلها فى دارها . وإذا هى بلغت مبلغ النساء دفعت إلى رجل لا تعرف عن أمره شيئاً ليتخذها أداة للمتعة وانجاب البنين والبنات . ثم تودع الدنيا دون أن تعمل عملا سوى أن تنشىء جيلا أكثر جهلا منها .

ويظن الرجال أن هذا السجن شريعة إلهية ، وأن جهل النساء ضمان لعفتهن ؛ فى حين أن تعليمهن أدعى إلى فجورهن . وقد نسى هؤلاء أن النساء المسلمات فى عصور القوة لم يكن سجينات دورهن ؛ بل كان منهن العالمات والشاعرات ،

وكن يساهمن فى الحياة العامة أكبر مساهمة ، يحرضن على القتال ويفتين أخواتهن فى أمور دينهن .

وكأنما حسب أعداء المرأة أن العلم يقودها إلى الفجور ، مع أن العلم والجهل قد يكونان سواء فى هذه الناحية . وإنما الذى يحفظ المرأة ويقيها السقوط هو أن يحسن أهلها تأديبها وتعليمها تعليما دينياً وأخلاقياً . وماذا يجدى الجهل إذا ساء الخلق ؟ وماذا يضير العلم إذا أحسن التأديب ؟ إن الجاهلة لا تتردد فى الزلل متى سنحت لها سانحة . وكثيرا ما تلقى من الصدف ما يكفى فى سقوطها . وهل من سبيل إلى المقارنة بين إمرأة متعلمة تعف لحسن تأديبها ، وامرأة جاهلة لا تعف إلا مقهورة مغلوبة على أمرها ؟ ومن قال إن تعليم المرأة دعوة إلى الفجور وخروج على التقاليد ؟ أليس من الممكن أن تقاسم المرأة الرجل حظه فى المعرفة ، ثم تستقر فى بيتها ترعاه وتخرج نشئاً صالحاً ؟ وهل يحسن لدى العقل أن نحجر عليها أن تعمل خارج دارها ، وأن تساهم فى العمل الاجتماعى بقدر طاقتها إذا إضطرتها الحياة إلى العمل ، أو إذا أوجبت عليها حاجة المجتمع أن تعمل ؟ وهل الدين هو الذى يوجب على المرأة أن تكون جاهلة خاملة ؟ وأى نفع للمجتمع الإسلامى فى أن تعامل المرأة معاملة الرقيق ؟ إن المرأة مساوية للرجل من جهة تركيبها العقلى . وإذا كان هناك تفاوت بينها وبينه فهو من جهة التربية التى تعد كل منهما للعمل الذى يتفق مع ميوله واستعداده . ورعاية البيت صناعة من الصناعات ؛ بل من أهمها ، إذ البيت مصنع تسوّى فيه النفوس وتغرس فيه الأخلاق ، شرها وخيرها . لكن إذا فقدت المرأة من يعولها فلا عليها أن تسعى لعمل يناسبها ويكفيها مئونة الانحدار إلى الرذيلة ، أو أن تكون كَلاًّ على ذوى قرباها ممن يضيقون بأنفسهم ، قبل أن يضيقوا بها أيضاً . « وإذن فلا مانع من السفور إذا

لم يتخذ مطية للفجور » كما كان يقول جمال الدين الأفغانى .

على أن جهل الرجل والمرأة كان منبعاً لكارثة اجتماعية كبرى ، وهى كثرة النسل . حقاً إن عامة الناس محرومون ، بسبب جهلهم وفقرهم ، من اللذات الحقيقية ، كالحياة الطيبة وتحصيل العلم ، والسعى وراء المجد ، والتضحية من أجل الوطن والإنسانية ، والرغبة فى الذكر الحسن وغير ذلك من اللذات الروحية التى تجعل للحياة معنى يسمو بها عن حياة البهيمة . ولما كان الجهلاء لا يعرفون عن هذه اللذات شيئاً فإنهم يسخرون من قائلها إذا حدثهم عنها ، ولا يرون أن هناك لذات أخرى سوى لذة البطن والفرج . فلذاتهم لا تعدو ملء بطونهم بما يتيسر لهم ، ثم إنجاب الأبناء الذين يزداد بؤسهم كلما درجوا فى الحياة . هذا إن لم يأت الموت يختزمهم فينقذهم من أن ينهجوا نهج آبائهم . وربما احتج بعضهم بالدين ، فقال إن تحديد النسل جريمة لاتغتفر . لكن الدين السمح لا يكلف الناس مالا يطيقون ، ولا يأخذهم بما لا قبل له به . وهذا هو مافهمه الإمام الغزالى الذى يذكر لنا فى كتاب « إحياء علوم الدين » أن للرجل أن يتجنب كثرة النسل عن طريق العزل إن خشى الفاقة ، وللمرأة أن تفعل مثله إن خشيت المرض ؛ بل إن خافت أن يذهب جمالها . وقد فطنت الأمم المتمدنة إلى خطورة إطلاق النسل دون ضابط فحددته ، ولم يمنعها ذلك من أن تحتفظ بقوتها وسطوتها . لكن لو قام رجل ينادى بذلك فى بلد إسلامى متأخر للقى من جهل العامة وحنق رجال الدين ما قد يسوء له أمره . هذا إن لم يتهم من هؤلاء وهؤلاء بالمروق أو الكفر .

وهكذا يعيش المرء فى دولة الجهل والاستبداد والفقر لا يعلم لنفسه غاية ، ولا يبذل جهدا لتبديل حاله بما هو خير منها . وربما ثارت نفسه ضد الاستبداد

والظلم . لكنه قلّما يفكر فى الحرية الحقيقية أو العمل المثمر للنهوض بأمره؛ إذ كل ما يصبو إليه هو أن يستبدل مستبدا بمستبد آخر علّه يجد طعماً جديداً للاستبداد . وهو يتوقع دائما أن تأتى معجزة من الخارج لكى تنقذه مما هو فيه ، مع أن المعجزات فى النظم السياسية والاجتماعية لا تأتى إلا من الداخل ، أى لا تنبعث إلا من أعماق الشعب نفسه . فإذا بقيت أمة جاهلة غافلة متخاذلة فليس لها أن تطلب المعجزات . وذلك أن الجهل والغفلة والتخاذل تدفع أى حكومة ، ولو كانت عادلة ، إلى الاستبداد . وإذا هى استبدت مرة واحدة لم تترك الاستبداد إلا مكرهة . لكن لن يقهرها الفقر والجهل والتخاذل .

٢ — ابتعادهم عن الدين

(١) الصراع السياسى والدينى :

لم ينته المسلمون إلى ما انتهوا إليه من الضعف والتدهور قضاء وقدراً ؛ وإنما قادتهم إلى ذلك أسباب ومقدمات » ، يميلون هم عادة إلى أن ينسبوها إلى غيرهم ، مع أنهم أحق بأن يعزوها لأنفسهم . فهم يقولون إن الأيام دول ، وإن المؤمن مصاب ، وإن الحياة الدنيا تحلو لغيرهم وفى عاقبتها الحسرة والندم ، ثم يخدعون النفس بالأمل فى انقشاع الغمة وزوال الكربة قضاء وقدراً ، وينسون سنة الله فى أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

والحق أنهم بدأوا من تلقاء أنفسهم يختلفون فيمن يتولى أمر المؤمنين ، وتخضبت أرضهم بالدماء ، وقتل من خلفائهم كثيرون ، ولم تسكن الفتن بمقتل هؤلاء . فقد تشتت شمل الأمة من ذلك الحين ، وكانت العصبية الكريهة التى قضى عليها الإسلام تعود تطل برأسها كلما آنست ضعفاً من

الولاة. فلما استقر الملك لبنى أمية استعادوا قوتهم واتسعت فتوحهم وامتدت حتى جنوب فرنسا. لكن عادت الفتن، فانتقل الملك لبنى العباس، فلم يستطيعوا إعادة وحدة المسلمين؛ إذ اشتد ساعد الدعاة لآل على، وبقى جزء من المغرب فى يد بنى أمية. ثم بدأت دولة الشرق فى الانحلال لاستبداد خلفائها وجبروتهم. وزاد فى انحلالها أن قويت شوكة الفرس الذين استظهر بهم العباسيون على العرب. وكان الاستبداد أظهر سمة فى هذه الدولة الشرقية. والاستبداد كما نعلم، يميت الأمم، ويشوه الدين والخلق. ودولة الاستبداد دولة من الأرقاء يسوسهم فيها رقيق مثلهم؛ فإن الحاكم المستبد يدعوه هلعه وفزعه أن يقبع سجيناً فى قصره بينما يستعين على قهر رعيته من الأرقاء بالجنود الأجانب، الذين يفنيهم طبقة بعد أخرى خوفاً من أن يغلبوه على ملكه، حتى ينتهى الأمر بأن ينكسوه عن عرشه، أو يبقوه عليه بعد أن يقلموا أظافره. حقاً استطاع هارون الرشيد أن يفتك بالبرامكة، لكنه لم يستطع القضاء على نفوذ الفرس الذى أخذ فى الازدياد فى عصر المأمون. ثم أراد خلفاء هذا الأخير أن يستبدلوا بالفرس غيرهم، فجاءوا بالأتراك. فكان ذلك نهاية ملكهم الحقيقى؛ إذ أصبح الخلفاء المستبدون لعبة فى أيدى الحظايا، توليهم وتعزلهم دسائس القصر ورغبات أمراء الجيش.

ولم يكن بد من أن تنعكس صورة الصراع السياسى فى عقائد المسلمين وآرائهم. وليس بعجيب أن تتفرق الأمة فى عقيدتها منذ أواخر القرن الأول الهجرى بظهور فرق الجبرية والقدرية والشيعة. ثم ازداد عدد هذه الفرق تبعاً لاختلاف النزعات السياسية والقومية. وأباحت كل فرقة لنفسها أن تفسر القرآن على ما تهوى، وأن تضع من الأحاديث ما تشتهى. وتشتت

الفكر ، وأخذ أعداء الإسلام يكيدون له . ونشأت معركة الجدل فى العقائد بين المفكرين المسلمين أنفسهم . واختلف هؤلاء ما شاءت لهم ثقافاتهم وعقولهم وأهواؤهم أن يختلفوا . وشغل القوم أنفسهم ومعاصريهم بمشاكل دينية مزعومة ما كان أغناهم عنها ، كالبحث فى صفات الله وأفعاله وفى خلق القرآن والقضاء والقدر . واحتدت الخصومة فيما بينهم ، واضطهد كل فريق صاحبه ، أو سارع إلى تكفيره . لكن إذا نحن نظرنا اليوم إلى المشاكل الدينية التى فرقتهم وجدنا أنها ترجع ، فى الأغلب ، إلى سوء فهمهم للنصوص الدينية وإلى انحرافهم ، إن قليلا أو كثيراً ، عن العقيدة الإسلامية الرئيسية التى تنص على تنزيه الله سبحانه تنزيهاً مطلقاً عن مشابهة المخلوقات ؛ إذ أن القرآن يذكرهم بأنه ليس كمثله شىء . (١)

ونجم عن هذا الصراع السياسى الدينى أن تغير وجه الإسلام الحقيقى ، على قرب عهد الناس بالدعوة الإسلامية ، فلحقه التشويه والتحريف ، وانزلق أهله من حيث لا يشعرون إلى الشرك ، فعبدوا مع الله غيره ؛ بل كان الزيغ عن التوحيد أبعد عهداً من ذلك . فإن جماعة ممن تشيعوا لعلى بن أبى طالب زعموا أنه لم يقتل ، لأن روح الإله حلت فيه ، ثم انتقلت منه إلى أبنائه . ثم إن أهل أفريقيا الشمالية من البربر والعرب خلطوا توحيدهم بديانة بدائية شهدتها الأمم القديمة كالصين وروما ، وما زالت تؤمن بها شعوب منحطة فى جزر المحيط الهادى ، ونعنى بها عبادة الموتى من الآباء والأجداد . غير أن هذه العبادة تطرقت إلى المسلمين فى صورة تقديس الأولياء والتقرب

---

(١) لقد عرضنا هذا الرأى بشىء من التفصيل فى مقدمتنا فى نقد مدارس علم الكلام التى صدرنا بها كتابه مناهج الأدلة فى عقائد الملة لابن رشد .

إليهم بالقرابين ، والالتجاء إليهم دون الله فى رفع الضر ، لأنهم أقرب إليهم من الله فيما يزعمون ، أو لأنهم بمثابة وزراء يشفعون لهم عند صاحب الأمر كله ، مع أن الدين الإسلامى يقرر أن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد . ثم امتد التشويه والتحريف من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، حتى عم البلاد الإسلامية بفضل جماعة من العلماء المزيفين الأدعياء ، أو من محترفى نوع من التصوف لا تربطه بالإسلام صلة قريبة أو بعيدة .

ب — التفرقة بين العقيدة والعمل :

ولما فطن العامة إلى أن ذوى الرأى فيهم من الفقهاء وأهل الجدل ليسوا على وفاق فيما يمس أمور العقيدة ، التى كانت لا تتطلب فى الحق لا جدلا ولا خلافاً ، أدركوا أن الحق كله لا يمكن أن يكون فى جانب أى فرقة من هذه الفرق . فاختلط عليهم الأمر ، وضاقوا بتشدد الفقهاء وتعنتهم ، وتفريعات أهل الجدل وتفسيراتهم التى لا تنتهى . فظنوا أنه من الممكن أن يفصلوا ، غير آثمين ، بين العقيدة والعمل الدنيوى من بيع وتجارة وروابط اجتماعية . ولم يكن هذا الفصل فى صالح العقيدة ، ولا فى صالح العمل ؛ إذ انقلبت العبادات إلى صيغ وعبارات جامدة وحركات لا روح ولا خشوع فيها . وبطل تأثيرها فى أعمال الناس ، ولم تعد تردعهم عن الفحشاء والمنكر ، وذلك لفقد روح الإخلاص فيها ، ولمّا غلب على الناس من الكذب والخداع والنفاق فى أمور دنياهم . فانتقل هذا الرياء إلى العبادات نفسها . وذهب كل إمرىء يسعى إلى ما يظن أنه الخير لنفسه ،

ولو كان فيه ضرر لغيره . « لا يحن أخ لأخيه ، ولا يهتم جار بشأن جاره ، ولا يرقب أحدنا فى الآخر إلا ولاذمة ، ولا نحترم شعائر ديننا ، ولا ندفع عن حوزته.» وينكر الأفغانى على بنى ملته أنهم يفرقون بين العقيدة والعمل فيقول : « أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى عنهم بما يظهر على الألسنة ، ولا يمس سواد القلب ؟ هل يرضى عنهم بأن يعبدوه على حرف ؟ فإن أصابهم خير اطمأنوا به ، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والأخرى ؟» .

وبينما يئن المسلمون مما يصيبهم كان العدو يغير على بلادهم فيستولى عليها قطراً بعد آخر ، فلا يثير ذلك نخوة لدى هؤلاء الذين يشتدقون باسم الدين ، ولا تدفعهم حمية للدفاع عنه . وكلما مضى بهم العهد زادوا تفرقة بين دينهم وأعمالهم ، وظنوا أنه يكفيهم أن يتقربوا إلى الله بعبادات ، ثم هم فى حل بعد ذلك من أن يسيئوا إلى الناس ، أو يقترفوا ما شاءوا من الآثام ما دامت العبادة فى ظنهم تمحو آثار أعمالهم . فهم يعبدون الله لا حباً فيه أو خشية منه ؛ وإنما لأنهم يحسبون أنهم يكفّرون عن خطاياهم أو عما يأتون من شر . فكأن العبادة نوع من العوض أو هى تجارة وحيلة . فما جاء القرن الثامن عشر الميلادى حتى كان العالم الإسلامى قد أشرف على الفناء ؛ إذ فسدت أخلاق أهله ، واستسلموا لشهواتهم وأهوائهم ، وزهق الحق وجاء الباطل ، واندثرت الفضيلة ، وعم الجهل ، وتحالف رجال الدين الأدعياء مع الحكام الطغاة ، وأخذوا يدعون الناس إلى طاعة أولى الأمر منهم ، ولو كانوا فساقاً أو من غير دينهم . وعلم المستعمرون خطر رجال الكهنوت فى الأمم الجاهلة البدائية ، فقربوهم إليهم . وأفسحوا لهم فى مجالسهم بين حين وحين ، وأسرع

هؤلاء فألقوا بأنفسهم فى رحابهم ، وربما آثروهم على الحاكم المسلم ، بعد أن رأوا أنه غدا لا يرتجى لديه خير أو نفع ؛ بل ربما هرع بعض هؤلاء إلى المستعمر يستنصرونه على إخوانهم الذين يطالبون بالحرية ، أو ينادون بعزل الولاة الخائنين . ولقد رأينا فى أثناء الأزمة المراكشية الأخيرة أن بعض رجال الطرق الصوفية يقفون موقفاً صريحاً ضد رغبات الشعب المراكشى بأسره ، وينصرون أعداءه عليه .

وعلى كل فقد كان مسلك هؤلاء المزيفين من العلماء أشد وبالا على العامة من جهلها ، فخارت النفوس ، وذهبت النخوة ، ودب التخاذل فى القلوب ، فأهملت الزراعة والتجارة واستشرى التواكل ، وطفق القوم يخدعون أنفسهم عما هم فيه من ضيق بحياة أخرى هى خير من حياتهم الدنيا ؛ إذ سينعمون فيها . وانصرفوا عن المساجد والعمل إلى الطرق الصوفية التى سيطر على المنتسبين إليها نفر من الأدعياء الجهلاء ، والتى استغلها المستعمرون فى جميع الأقطار الإسلامية لما رأوا أنها كفيلة بإبقاء الجاهلين على جهلهم ، والمتواكلين على تواكلهم .

وقد اضطرت عامة المسلمين إلى سلوك مسلك التصوف الكاذب فراراً من تشدد علماء الكلام والفقهاء الذين ذهبوا فى تفريع المسائل وتقسيمها وفرض الفروض المستحيلة كل مذهب ، فتخيلوا جميع الحالات الممكنة التى قد لا تتحقق بالفعل . ثم اختلفوا فى حكم كل مسألة من هذه المسائل ، فتشعبت الحلول ، وتفرقت الآراء ، وأصبح الاهتداء إلى الحق فيها أمراً يكاد يشبه المستحيل ، حتى لدى المختصين فى دراسة العقائد والفقه ، فما بالك بالعامة التى تنفر من البحث ، وتكره التعمق ، ولا تبحث إلا عن السهل

اليسير ؟ . وهل هناك ما هو أشد يسراً من مذهب يريحهم من عنت الفقهاء ولججهم ، ويحبب إليهم التخلص من المشاكل التى لا يجدون لها حلا ؛ بل يبيح لهم التحرر من التكاليف التى أصبحت ثقيلة مجهدة ، لاضطراب العقيدة التى توجهها عليهم .

لقد كان هذا المذهب السهل اليسير هو التصوف . وليته كان تصوفاً إسلامياً بالمعنى الذى كان يفهمه السلف من الزهد والتقشف ، والرغبة عن غرور الدنيا ، ولكن مع العمل المستمر لنشر الإسلام ، وكشف حجب الوثنية والشرك لدى الأمم الأخرى . لقد كان تصوفهم على العكس من ذلك تصوفاً دخيلا على الإسلام ، ضم شتات آراء مسيحية وأخرى وثنية ترجع بعض أصولها إلى فلاسفة الإغريق كفيثاغورس وأفلاطون ، كما حوى آراء أفلوطين من أقطاب مدرسة الإسكندرية ، ومن أشهر القائلين بوحدة الوجود ، أى بأن كل ما فى هذا العالم إنما هو مظهر لوجود واحد ، وقد فسَّره بعض المتصوفة من المسلمين بأنه الله الذى يحل فيهم وفى كل كائن ، مع أن فكرة الحلول هى تلك التى حاربها الإسلام وجاء لهدمها .

(ب) تصوف المتأخرين :

لقد كان تصوف السلف وزهدهم فى الحياة مظهرا للتعبد والخشوع ، وحافزاً إلى العمل ؛ بينما أصبح التصوف لدى المتأخرين تظاهراً بالعبادة ، وذريعة للتخاذل والتغرير بالعامة . فنشأ فى القرن الرابع الهجرى أو قبله بيسير جماعة من الأدعياء الذين أرادوا احتلال مكانة كبار الأئمة وأجلة العلماء ، فأخذوا يغربون فى الدين ، ويتظاهرون بالتقشف ، ولبسوا مسوح

التصوف أو الرهبنة . ومن العادة ، كما يقول عبدالرحمن الكواكبي ، « أن يلجأ ضعيف العلم إلى التصوف ، كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر ، وكما يلجأ قليل المال إلى الزينة واللباس . » فصار هؤلاء المدّعون للعلم والزهد يدسون على المسلمين بتأويل القرآن على نحو لا يحتمله النص الصريح . ثم نفقت سوق الدجل فى القرن الخامس ، واشتد ساعد الآراء الإلحادية ، وجاهر بعض الدعاة بمذهب إباحى ، على نسق ما كان يدعو إليه الدهريون من الإغريق والفرس . وكان يرأسهم جماعة من الدهاة الذين علموا كيف تنحدر الأمة نحو الشرك بسبب جهلها وابتعادها عن المنابع الأولى لدينها . فنصب هؤلاء الدعاة أنفسهم أئمة فى الدين ، وزعموا أنهم أخذوه عن أئمتهم المعصومين ، أو تركوا أتباعهم يزعمون أنهم أولياء الله ، وأقطاب الطريق . ثم توسعوا فى تصوفهم هذا ، فرسموا الطقوس ، ووضعوا الأذكار ، وحددوا لها ترنحاتها ونغمات مزاميرها وطبولها ، وألفوا التراتيل ، وصنفوا الكتب التى ملأوها بالأساطير والأباطيل : ينسبونها فيها إلى أنفسهم أو إلى مشايخهم الذين أخذوا عنهم كرامات أو معجزات ، دونها معجزات المرسلين . ثم ستروا باطلهم بالغموض فى العبارة ، واستخدموا مصطلحات يعجز الرجل العادى سليم العقل عن فهمها ، وقالوا إنها أسرار لا يرقى إليها إلا الخاصة ، وإنه لا مدخل للعقل فى إدراكها ؛ لأن العارف منهم متى وصل أدرك بذوقه مالا يخطر بعقل بشر . وعند الوصول يستوى الجمع والإفراد ، والكثرة والوحدة ، أى أن للتصوف منطقاً دونه منطق العقل ، أو هو مضاد له ، إن صح أن يسمى منطقا . ثم قالوا إن من رام التعبير باللغة عما يشاهده أهل التصوف فى شطحاتهم يشبه أن يكون كمن يروم ذوق الألوان . أما هؤلاء الذين يأبى

عليهم عقلهم أن يرتضوا ما يقرره المتصوفون من أمور تخالف صريح الشرع فهم كالخفافيش التى لا ترى ضياء الشمس ؛ لأنها ألفت ظلمة الليل . وخليق بهم أن يعيشوا مع العقلاء أمثالهم من الذين أوتوا ظاهراً من الحياة الدنيا . أما أهل الذوق أو المعرفة الصوفية فهم المصطفون المجتبون الذين تفيض عليهم أنوارٌ من لدن عالم الغيب ، لا ينالها إلا كل ذى حظ صبور !

وقد فطن الخلفاء أول الأمر إلى خطر هؤلاء الغلاة من الأدعياء على الدين، فقتلوهم . لكن ذلك لم يحل دون انتشار كتبهم وكثرة أتباعهم ممن يميلون ، فى كل أمة ، إلى غرائب النوادر وعجيب الأساطير ، وممن يريدون أن يحيوا فى عالم كله معجزات مستمرة ؛ لأنهم لا يرتضون العقل حكما فى أمور دينهم ودنياهم ، أو لأنهم يعجزون عن استخدام عقولهم لتمييز الخبيث من الطيب . وأمثال هؤلاء كثيرون ، وهم فى كل طبقة من طبقات الأمة . ولم يعجز المدلسون عن أن يشبعوا نزعتهم إلى الغريب والطريف ، فطفقوا يقتبسون لهم كثيرا من أساطير الإسرائليين ونوادر المسيحيين وقصص قديسيهم وعجائبهم . ثم قسموا أتباعهم ومريديهم إلى منازل أو طبقات ، ووضعوا لهم نظما تشبه نظم الرهبانيات والأديرة ، ورسموا لهم طقوسا شتى ، وحددوا لهم مراسم الانتقال من طبقة أو منزلة إلى أخرى ، وخصصوا لهم الشارات والعلامات . ثم أقاموا الأضرحة على أجداث رؤسائهم وشيوخهم ، وجعلوها كالكنائس التى تضم رفات بعض الشهداء والقديسين. وشرعوا لهم التقرب بالشموع والنقود للتوسل لساكنى القبور، والتبرك بآثارهم،وقراءة أيات أو سور من القرآن على قبورهم طلباً للشفاعة ، مع أن قراءة القرآن على القبور لم تؤثر عن السلف ؛ بل هى بدعة .

وقد قارن الكواكبي قبلنا بين طقوس المتصوفة ومراسم المسيحيين ، فأحسن الاهتداء إلى ما بين تصوف المسلمين في العصور الأخيرة وبين طقوس المسيحية من أوجه شبه سافرة فقال : « وأخذوا التبرك بالآثار والقدح والحربة من احترام الذخيرة وقدسية المكان ، وكذلك إمرار اليد على الصدر عند ذكر بعض الصالحين من إمرارها على الصدر لإشارة الصليب ، وانتزعوا الحقيقة من السر ، ووحدة الوجود من الحلول ، والخلافة من الرسم [تنصيب الكاهن] والسقيا من تناول القربان ، والمولد من الميلاد . . ورفع الأعلام من حمل الصلبان ، وتعليق ألواح الأسماء المصدرة بالنداء على الجدران من تعليق الصور والتماثيل ، والاستفاضة في المراقبة من التوجه بالقلوب انحناءً أمام الأصنام ، ومنعَ الاستهداء من نصوص الكتاب والسنة من حظر الكهنة الكاثوليك قراءة الأنجيل على غيرهم ، وسدِّ اليهود الأخذ من التوراة وتمسكهم بالتلمود . . . »[1]

كذلك ذكر شكيب أرسلان أنه ذهب مرة إلى المدينة المنورة ، فشاهد أن شيخ الحرم النبوي ، وكان تركيا ، قد دلف هو وجماعة من خدم الحرم في ساعة معينة بعد العصر ، فدخلوا الحجرة الشريفة لإيقاد الشموع والقيام ببعض الخدمات المرسومة . فرأى أنهم لبسوا جميعا ، قبل دخولهم إليها ، أوشحة بيضاء شفافة ، كأنما كانوا يريدون بذلك التعظيم والتوقير ، وهذا شبيه بما يفعله رجال الكهنوت في الديانة المسيحية . وقد حكى الإمام محمد عبده أنه دخل يوماً كنيسة في بيت لحم ، فسمع أناشيد تشبه أناشيد الطرق الصوفية ، ولكنه سرعان ما فطن إلى أن هؤلاء كانوا قسسا مسيحيين .

---

(١) ارجع إلى طبائع الاستبداد ص ٢٠ ، وإلى أم القرى ص ٣٥ .

(ﻫ) مظاهر الشرك :

ولما فتح باب الشعوذة والإيحاء على مصراعيه اندفع من لا حياء له يدعى أنه أدرك سر الولاية : إنها نظرة واحدة من المرشد يصير لها الشقى ولياً، وإنها نفحة فى وجه المريد أو تفلة فى فمه فإذا بالأفعى تطيعه وبالعقرب تحترمه ، مع أنها لدغت صاحب الغار عليه السلام. وليس هذا كل ما يستطيعه العارف ؛ لأن من وصل عرف : « أن الولاية لا ينافيها ارتكاب الكبائر كلها ، وأن الاعتقاد أولى من الانتقاد ، وأن الاعتراض يوجب الحرمان ، أى أن تحسين الظن بالفساق والفجار أولى من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى غير ذلك من الأقوال المهوّنة للدين والأعمال التى تجعله نوعا من اللهو الذى تستأنس به نفوس الجاهلين . » (١)

ولما رأى أدعياء التصوف كيف أقبـــل الجهلة عليهم لم يزدادوا إلا غلواً فى تقرير أصول الشرك ، فدعوا إلى التبرك بالأولياء ، ونصحوا بالالتجاء إليهم لقضاء الحاجات ، ولو كانت من المنكرات . وصادف ذلك هوى فى نفوس النساء والمرضى وضعاف العقول ولو كانوا ممن قد يُظن بهم العلم . ذلك أن الإنسان متى قعد به تفكيره عن السمو إلى ما تتطلبه عقيدة التوحيد من أن الإله وحده هو الذى يدبر العالم ويصرفه ويرتب مسبباته على أسبابه ، دون أن يكون فى حاجة إلى وسيط أو وكيل ، فإنه يميل إلى عبادة ما يدركه حسه من ضريح ، أو تلمسه يده من شجرة أو صخر ؛ فإذا جمعت العبادة إلى جانب ذلك نصيباً من اللهو أو الرقص كانت أقرب

(١) عبد الرحمن الكواكبى .

إلى النفس ، وأكثر يسراً عليها من عبادة كلها جد وخشوع ؛ لأنها تتجه إلى من لا يرضيه أن يترنح المترنحون ، وأن يصفق المصفقون على وقع المزامير والطبول .

ولم يجد مثل هذا التصوف الذى لا يكلف جهداً ما يعترض سبيله، فانتشر فى مختلف البلاد الإسلامية ؛ بل وجد من تشجيع بعض الجهلة من الأمراء ما ثبت أقدامه فى مصر والشام وبلاد المغرب ، ثم بلغ غايته فى بلاد الأتراك. وسيطر على عقول أهلها منذ عدة قرون ، فكان سبباً فى انحلالها وذهاب ملكها . فقد عظم فيها أمر هؤلاء الدراويش الذين خلطوا العقائد الإسلامية بكثير من الخرافات والأوهام ، حتى ذوت عقيدة التوحيد ، وقامت مقامها عبادة الأولياء أو الموتى ؛ ووجدوا من الأمراء الجاهلين عضداً ، فتبعهم فى تشجيعهم نفر من العلماء الأغبياء فعم البلاء ، وأيقنت العامة ، أو كادت توقن ، أن هذا التصوف هو الدين .

وقد وصف الكواكبى الذى عاصر هذا الفساد مابلغه المشعوذون فى تركيا من القوة والنفوذ فقال : « فهؤلاء المدلسون قد نالوا بسحرهم نفوذاً عظيما ، وأفسدوا كثيراً فى الدين ، وبه جعلوا كثيراً من المدارس تكايا للطالبين الذين يشهدون لهم زوراً بالكرامات . . وبه حوّلوا كثيراً من الجوامع مجامع للطالبين الذين ترتج من دوّى طبولهم قلوب المتوهمين ، وتكفهر أعصابهم ، فيلبسهم نوع من الخبل ، فيظنونه حالة من الخشوع ، وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقاً لهم ، وبه جعلوا مداخيل أوقاف الملوك والأمراء عطايا لأتباعهم . . وبذلك ضاق على العلماء الخناق ، لا رزق ولا حرمة . وكفى بذلك مضيعا للعلم والدين ، لأنه قد التبس على العامة علماء

الدين الفقراء الأذلاء من هؤلاء المدلسين الأغنياء الأعزاء ، فتشوهت عقائدهم وضعف يقينهم . »

وكم رأينا نحن فى بلادنا قطعانا من هؤلاء الجهلاء الأدعياء الذين يجوبون القرى فى مواسم محددة ، يحملون التمائم والمسابح ، ويتظاهرون بالورع . ولكنهم ينزلون ضيوفا على القرية الجاهلة بيتاً بعد بيت ، يقيمون الأذكار ويوهمون الناس بالباطل أنهم أهل بركة وخير ، فيصيبون أفضل طعامهم ، وقد يذهبون بالقليل الذى يدخرونه وما أشد حاجتهم إليه ؛ إذ يحرضونهم على البذل لهم ، ونحر الضحايا على قبور أوليائهم . حقاً إن انتشار التعليم فى البلاد الإسلامية كفيل بالقضاء على هذه الخرافات . لكننا ما زلنا نرى فى عاصمة مصر نفسها نفراً غير قليل يهرعون من أقاصى البلاد لمولد من الموالد ، فيزورون الأضرحة فيلمسون جدرانها ، فإذا انتهوا من ذلك أقاموا حفلات الذكر فى الأزقة أو الميادين ، على نحو تعافه النفس إذ لاخشوع فيه ، وإنما هو ضجيج وصفيق لايذكر فيه اسم الله إلا باللسان . غير أن هذه الطقوس أو الحفلات أصبحت أقل رونقا وأقل جاذبية مما يبشر بأن ساعة الخلاص من هذا التصوف الخادع قد أوشكت أن تحين

(هـ) الدفاع عن عقيدة التوحيد :

وقد فزع كثير من مفكرى المسلمين فى مختلف العصور لموجة الشرك التى كانت تقضى على معالم العقيدة الإسلامية . وأشهر هؤلاء ابن تيمية ومن تبع أثره ، كالإمام الشوكانى اليمنى ، ومحمد بن عبد الوهاب ، وجمال الدين الأفغانى وتلاميذه من أمثال محمد عبده ورشيد رضا . فإن هؤلاء رأوا أن

التصوف كما يفهمه المسلمون بدعة فى الدين؛ بل نوع من الشرك ؛ لأن المسلمين استبدلوا بالأصنام التى كان يعبدها عرب الجاهلية قبور الأولياء التى أقاموا عليها الأضرحة ، وأسرجوا لها الشموع ، كما يفعل المسيحيون فى كنائسهم . وجعلوا يطوفون بها ،والسعيد منهم من استلم أركانها ، أو نثر ترابها على رأسه . كذلك هرعوا إليها يستنجدون بالموتى عند ما تحل بهم النوائب ، ويطلبون إليهم الرحمة والعون ، ويتخذونهم زلفى إلى الله فى قبول دعواتهم . ثم ابتدعوا عبادات لم يأت بها الإسلام ،كالتقرب إلى الأولياء ببعض الركعات كما لو كان الله قد ترك الإسلام ناقصاً ، فجاءوا هم يكملونه .

وكاد يستوى المسلمون جميعا فى الإيمان بمثل هذه الخرافات . حقاً قد يكون انتشار هذا الشرك وعبادة الأصنام أو القبور بين العامة أمرا لا يثير كثيراً من العجب ، ولكن ما أعجب أن يميل إلى هذا الشرك كثير من الخواص، أو ممن يُتَوهم أنهم كذلك . . وكم سرى عن تشييد القبور وتحسينها من مفاسد يبكى لها الإسلام ، اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام . وعظم ذلك ، فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ، ودفع الضرر ، فجعلوها مقصداً لطلب الحوائج وملجأ لنجح المطالب ، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم،أوشدوا إليها الرحال،وتمسحوا بها واستغاثوا.وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه ... ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله ، ويغار حمية للدين الحنيف ، لا عالماً ولا متعلماً ، ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكا . وقد توارد إلينا من الأخبار مالا يُشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من قِبل خصم حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك

ومعتقدك الولى الفلانى تلعثم وتلكأ ، وأبى واعترف بالحق . »[1] وقد كثر عدد هؤلاء الأولياء أو أنصاف الآلهة بتقدم الزمن ، وأصبحوا لا يدخلون تحت حصر ؛ فلكل قرية معبودها أو صنمها ، أى أن المسلمين الذين يلجأون إلى غير الله فى دعواتهم وتوسلاتهم يشركون معه آلهة أكثر عدداً مما ذهب إليه هؤلاء الذين قال الله فيهم : لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة .

ومن هؤلاء الذين فزعوا من طغيان مظاهر الشرك محمد بن عبد الوهاب الذى قام ، فى أثناء القرن الثامن عشر ، ينادى بضروره تطهير العقائد ، والعودة إلى العقيدة الأولى ، عقيدة التوحيد الصحيح التى لا تشرك مع الله أحداً غيره فى ذاته أو صفاته أو أفعاله ؛ وجعل يحض المسلمين على وجوب الرجوع مباشرة إلى الكتاب والسنة وعدم الثقة بطائفة رجال الكهنوت الذين فرضوا أنفسهم على الدين وأهله وأغلقوا باب الاجتهاد وآثروا التقليد وجعلوا الجمود شعاراً لهم . كذلك هاجم المتصوفة وما ابتدعوه من إقامة الأضرحة وما سنوه من زيارة القبور ونذر النذور وذبح القرابين وتلاوة الأوراد التى يبكون عند سماعها ولا يبكون عند سماع القرآن : ذلك أنه كان يعتقد أنه لا نجاة للمسلمين مما حل بهم من تدهور إلا إذا تركوا هذه الأوهام والخرافات وعادوا إلى دينهم فى طهارته الأولى .

لكن ثورة ابن تيمية وتلاميذه فى مختلف العصور لم تكن إلا ثورة أفراد قلائل ، غلبت على أصواتهم صيحات المتوسلين بالشاذلى والجيلانى وابن عربى . فلقد كان الاتجاه نحو التصوف غالباً ؛ ولأن الجهل كان شاملا . فاتهم دعاة الإصلاح بالمروق والكفر ، كما اتهم بذلك ابن تيمية ،

---

(١) من كلام الإمام الشوكانى : نيل الأوطار ج ٣ ص ١٣٤ .

وكما شوه رجال الكهنوت والسياسة فكرة المسلمين عن الحركة الوهابية . فلما جاء جمال الدين الأفغانى ، عجب لأمر هؤلاء الذين يعيشون عالة على الناس، ويدّعون التصوف والاتصال بالله ، أو يزعمون أنهم يفنون فى ذات الله سبحانه ، مع أن الفناء الحقيق إنما يجب ان يكون فى العمل من أجل الآخرين، لا فى التغرير بهم وتضليلهم وصرفهم عن دينهم ودنياهم. وقد نجحت دعوة جمال الدين إلى حد ليس باليسير ، فحملها من بعده تلاميذه وكثير من الكتاب . فأصبح هؤلاء الذين لا ينظرون بعين الرضا إلى التصوف ؛ بل يهاجمونه ، من أمثال رشيد رضا[1] وغيره ، نفراً عديدا لا يوصفون بالكفر أو المروق ، وغدا أنصار التصوف فى موقف الدفاع ، بعد أن لزموا موقف الهجوم عصورا طويلة .

على أننا قد لا نعطى التصوف حقه فى معركته الأخيرة إذا نحن أنكرنا أنه ما زال له أنصار يدافعون عنه ، قدر طاقتهم ، محاولين الإبقاء عليه بين المسلمين ، بعد أن أدرك هؤلاء خطره عليهم ، ونعنى بهؤلاء الأنصار بعض المستشرقين ممن يدرسون التفكير الإسلامى ولا سيما التصوف . فمنهم من يقول : ليس فى التفكير الإسلامى شىء جدير بالإعجاب سوى التصوف ، أما الفلسفة فحظ المسلمين فيها ليس مما يؤبه له . وقد ردد بعض من يشتغلون بالفلسفة من المسلمين هذا الرأى غافلين عما يحمل بين ثناياه . فإن تمجيد التصوف الإسلامى لا يراد منه فى الحقيقة سوى تمجيد التصوف المسيحى الذى كان أحد منابعه ، وهو تصوف قائم على فكرة الحلول التى تتنافى مع عقيدة

---

(١) المنار : مجلد ٨ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ ؛ مجلد ٢ ص ٩٨ ؛ مجلد ١٠ ص ٣٧٠ ؛ مجلد ٨ ص ١٦٩ ، مجلد ١١ ص ٢٩٧ الخ .

المسلمين . قد يقول بعضهم إن الناس يميلون فى جميع العصور إلى اعتقاد أن التراتيم والمواكب الدينية وتقديس آثار الأولياء لها قيمة ذاتية ، وإنها تصل الإنسان بالإله ، وإنها تعبر عن حاجة الإنسان إلى تجسيد عواطفه الداخلية بحركات خارجية ، وتلك حاجة إنسانية لا يمكن أن تختفى من أى دين ، ولو كان الإسلام . ونقول نحن إن المسلمين ليسوا فى حاجة إلى هذه التراتيم والمواكب ولا إلى تقديس الآثار ؛ لأنهم يستطيعون الاتجاه إلى خالقهم خاشعين آمنين ، دون أن يشركوا معه فى ملكه غيره . وقد فعلوا ذلك أزماناً ، وهم الآن فى طريق العودة إليه ، فيما نعتقد ، بعد أن أخذوا بأسباب العلم والحضارة .

٣ — يأس وجبن

(١) يأس :

لم يستطع التفكير العقلى أن يصمد أمام عدوين رهيبين تحالفا عليه وأقسما على هلاكه ، رغم ما بينهما من صراع قديم ، ونعنى بهذين العدوين المتحالفين تعنت أهل الجدل والفقه ، ومذهب التصوف الذى جعل الدين لهواً ولعباً ، والتوحيد شركا أو حلولا . وقدر للشر أن ينتصر ، فأنطفأت جذوة التفكير ، واندثر العلم ، ودخلت الأمم الإسلامية فى سباتها العميق ، فتخلفت عن الركب ، وسبقتها أمم أوروبا التى تتلمذت عليها طيلة العصور الوسطى . فلما أيقظها الاستعمار من محنتها ، وأطلعت على آثار الحضارة الأوروبية وما وصلت إليه من تقدم فى القوة والعمران والعلم ، ورأت أن الشقة بينها وبين السابقين أضحت أكثر اتساعا من أن تقطعها بالخيال ، فضلا عن أن تأتى عليها بالجد والعمل تملكها اليأس ، وآثرت أن تعود إلى نومها ، وأن تتعلل

بالأمانى والدعاء ، ورغبت فى أن تستسلم للقضاء والقدر ، وهى تظن أن معجزة من المعجزات ستأتى يوماً لتدفعها إلى الإمام ، فتحتل مكان الصدارة فى سباق الأمم ، دون أن يتطلب منها هذا السبق جهداً ، ودون أن تكون فى حاجة إلى ركوب الصعب من الأمور . فحق للأوروبيين أن يسخروا من المسلمين المعاصرين ، وأن يرجعوا تأخرهم إلى إيمانهم بالقضاء والقدر ، وأن يقولوا عنهم إنهم قوم مضى زمنهم ، ولن تقوم لهم قائمة ما داموا يحيلون كل أمر يعجزون عنه ، أو يظنون أنهم عاجزون عنه ، على القدرة الإلهية ؛ وإن عقيدتهم هذه سوف تقودهم إلى الفناء ، وليس فى فنائهم خسران كبير ؛ إذ سيخلفهم فى أرضهم قوم آخرون هم خير منهم ؛ لأنهم سيكونون أكثر منهم اعتمادا بأنفسهم ، وأقدر على مقاومة عوامل الزمن ، وحوادث الدهر التى لا تبقى إلا على من هو أهل للبقاء . فالحياة صراع ، ولا مجال فيها للضعيف خائر العزم .

حقاً حاول جمال الدين الأفغانى أن يرد هذه التهمة ، وأن يدافع عن عقيدة المسلمين فى القضاء والقدر ، فرمى أهل أوروبا بأنهم لا يفهمون حقيقة هذه العقيدة ، وأنهم لا يفرقون بين الإيمان بالقضاء والقدر وبين مذهب الجبر الذى نادت به طائفة من المسلمين منذ القرن الثانى الهجرى . فإن هؤلاء كانوا ينكرون على الإنسان كل قدرة ، وينسبون ذلك إلى الله وحده . فهبطوا بالإنسان إلى مرتبة الجماد أو النبات ، وجعلوه كريشة فى مهب الريح تقلبها كيفما تميل ، لا قدرة لها ولا إرادة . ويزعم الأفغانى أن هذه التهمة التى ألصقها الأجانب بالمسلمين تهمة باطلة لا تقوم على أساس من الحق ، وأن ضعاف العقول من الشرقيين وحدهم هم

الذين يرددونها ؛ لأنه « لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سنى وشيعى وزيدى وإسماعيلى ووهابى وخارجى يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة ؛ بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءاً اختيارياً فى أعمالهم ، ويُسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم . » ذلك أن المسلمين يرون الآن أن مذهب الجبر المطلق ليس إلا نوعاً من السفسطة الكاذبة . هذا إلى أنه مذهب تاريخى قد غبر زمنه منذ أواخر القرن الرابع الهجرى . وكأن الأفغانى يومئ هنا إلى انتصار مذهب الأشعرى الذى حاول التوفيق بين طائفة الجبرية وطائفة المعتزلة فى مسألة قدرة العبد ، وصلتها بعقيدة المسلمين القائلة بأن الله خالق كل شىء . ويظن جمال الدين بعد ذلك أن مذهب الجبر المحض قد اندثر تماماً ، وأن الإيمان بالقضاء والقدر ، كما يفهمه المسلمون ، ليس شبيهاً فى شىء بهذا الاعتقاد الغريب عن روح الإسلام . ثم يلخص رده على موجهى هذه التهمة فيقول : « أما ما زعموه فى المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة ولا غيرها من العقائد الإسلامية ، ونسبته إليها نسبة النقيض إلى النقيض . » وهو يعلل رأيه هذا بأن المسلمين الأوائل لم يفتحوا الأمصار ، ولم يبسطوا ملكهم عليها إلا لأنهم كانوا مؤمنين بالقضاء والقدر ، وبأن نابليون لم ينتصر فى معاركه إلا لأنه كان مؤمناً بهذه العقيدة

وهنا يؤكد الأفغانى أن انحطاط المسلمين إنما يرجع إلى بعض الأسباب السياسية ، كهجوم التتار على بغداد ، ومجىء الصليبيين إلى بلاد الشام فى الوقت الذى ضعف فيه ساسة المسلمين وأمراؤهم ؛ فى حين أنه يقول غير ذلك فى موطن آخر . ومهما يكن من تأرجح رأيه فى أسباب التدهور فإنا نراه

يؤكد مرة أخرى أن الأمة الإسلامية لن تموت ما دامت تؤمن بالقضاء والقدر ، ويعلل النفس بأن ما عرض للمسلمين من الأمراض النفسية والتدهور العقلي لا بد أن يزول بسبب التمسك بمثل هذه العقيدة الحقة ، ليعود الأمر كما بدأ ، ويذهب اليأس ، ويأتي مكانه العزم ، فينقذ المسلمون بلادهم ، ويرهبوا الأمم الطامعة فيهم ، فيوقفوها عند حدها . وليس ذلك في ظنه بالأمر الذي ينكره العقل ، كما تدل عليه الحوادث التاريخية ؛ فإن العثمانيين هبوا من نومهم بعد حروب التتر وأهل الصليب ، فأرسلوا جيوشهم إلى بلاد أوروبا ، وامتدت فتوحاتهم ، ودوخوا الملوك والسلاطين ، حتى غدا سلطان آل عثمان يسمى بالسلطان الأكبر في أوروبا .

لكننا نعتقد أن جمال الدين كان يخدع النفس بالأماني ، ويغفل عن حقيقة هامة ، ينبغي لنا أن نعترف بها ، لا مجاراة أو تقليداً لأهل أوروبا الذين يعيروننا بإيماننا بالجبر ، ولكن إحقاقاً للحق ، وكشفاً عن موطن الداء ، وقضاء على تلك الفكرة الخاطئة التي كوّنها المسلمون لأنفسهم عن القضاء والقدر . حقاً كانت هناك جماعة الجبر المحض الذين أنكروا على الإنسان أفعاله وقدرته واختياره . وجعلوه لا يملك من أمر نفسه شيئاً . كذلك من الحق أن جماعة من المسلمين قاموا يسفهون آراء هذه الطائفة ، لكن لم يكن أهل السنة الذين يمثلهم الأشعري وغيره هم الذين قضوا على آراء الجبرية ، تلك الآراء التي بعثت اليأس في القلوب وشلت الأيدي عن العمل ، وإنما كان المعتزلة هم الذين حاولوا إنقاذ الأمة من وباء التواكل والتخاذل ؛ فأخذوا يقررون حرية الإنسان واختياره ، حتى يكون للثواب والعقاب معنى.(١)

(١) إن كان من فعل الكبائر مجبرا ... فعقابه ظلم على ما يفعل
والله إذ خلق المعادن عالم ... أن الحداد البيض منها تجعل

فجاء أبو الحسن الأشعرى يحاول التوفيق بين أهل الجبر و بين المعتزلة فلم يفلح فى توفيقه ؛ إذ قال إن للإنسان كسباً ، واختياراً ولكنه لا يخلق أفعاله . لأن الله هو الذى يخلقها له ، سواء أكانت إرادية أم غير إرادية . وظن من لا علم له بحقيقة رأى الأشعرى أن هذا المفكر كان وسطاً بين أهل الجبر والقائلين باختيار الإنسان وحريته . والحق أنه كان أقرب إلى أهل الجبر ؛ بل هو فى رأينا لا يختلف عنهم فى قليل أو كثير . (١)

فلما كتب النصر لآرائه ، وظن الناس أنها تعبر عن حقيقة آراء السلف سرت فى الأمة الإسلامية روح التخاذل والتواكل . ولن يغنى عن الأشعرى أن يجىء جمال الدين يحاول تبرئته ، أو يتحايل فى دفاعه بالتفرقة اللفظية بين عقيدة الجبر و بين فهم المسلمين للقضاء والقدر . وكان أولى به أن يسلك مسلك غيره من أئمة التفكير الإسلامى الذين فسروا القضاء والقدر بأنه الأسباب التى وضعها الله فى الكون ، والتى يستطيع الإنسان أن يعمل فى حدودها ، وأن يعمل الشىء الكثير ؛ بل الشىء الذى لا يكاد يقف عند حد . لكن هذا الرأى الحق لم يجد من يصغى له أو يحاول فهمه . وهكذا انتصرت فكرة الأشعرى ، وهى فكرة الجبر المحض ، بسبب الجمود والتقليد ، وانتهى الأمر بالأمم الإسلامية إلى ما نراه من ضعف فى وقتنا الحاضر .

فما لا شك فيه أن عقيدة الجبر ، كما فهمها المسلمون فى عصور انحطاطهم ، وكما يفهمها كثير منهم فى عصرنا الراهن كانت وليدة الخور والتخاذل .

---

(١) عرضنا هذه الفكرة فى موضع آخر : انظر مقدمتنا لكتاب مناهج الأدلة فى عقائد الملة ص ١١٠ — ١١٣ .

وقد استخدمها بعض الناس تبريراً لما هم فيه من ضنك وعجز عن التمتع بالطيبات التى أباح الله لهم أن ينعموا بها ؛ ثم أرادوا ألا يكون القادرون أفضل حالا منهم ، فأخذوا يحثونهم على الزهد فى الدنيا والاكتفاء بالقليل الذى لا يغنى ، والقضاء على الميول الإنسانية المشروعة كالسعى وراء المجد ، وطلب المال والنفوذ والقيام بخطير العمل مما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع ، ويجعلهم فى منعة لا ينال منها عدو أو طامع . ثم طفقوا يرغبونهم فى أن يعيشوا كأموات قبل أن يدركهم الموت حقيقة . وكأن الإسلام لم يأت لينادى بالجمع بين الدين والدنيا ، وينعى على هؤلاء الذين يحرّمون على أنفسهم ما أحل الله لهم لأنهم آثروا أن يحيوا حياة الرهبان . حقاً إن الإسلام لا يدعو أهله إلى التكالب على الحياة الدنيا على نحو ينسون معه آخرتهم ، لكنه ينصحهم بالتوسط فى الأمر . فإذا غلا بعض المسلمين فى الحث على الزهد والتقشف فربما كان ذلك لعجز فى نفسه أو للترويح عن العاجزين من أمثاله .

ومع هذا فمن العادة أن يفسر المرء كل شىء بالقضاء والقدر أو الصدفة — وكلا التعبيرين هنا سواء — عند ما يجهل أسباب الأشياء ، أو عند ما يحاول الإبقاء على جهله . وهل هناك من خطر على عقيدة المسلم إذا أدرك أن ما يحدث فى العالم إنما يقع طبقاً لقواعد وقوانين ثابتة سخرها الله لتؤدى إلى نتائج محددة ؟ وأيهما أسلم عقلا وأصح إيماناً : رجل يعتقد أن ما يحدث فى الكون إنما يجرى على أسس ثابتة تدل على دقة الصانع وعلمه وحكمته ، أم رجل يظن أن الصدفة أو الاتفاق ، أو القضاء أو القدر ، أو ما شئت من الأسماء ، هو قانون هذا العالم ؟ .

هذا إلى أن الزهد فى الحياة لا يمنع العمل ، ولا يبرر اليأس ، ولا يدعو إلى التواكل الذى يوصى به أهل الجبر المطلق . ألم يكن الصحابة وكثير من أمراء المسلمين زاهدين ، ومع ذلك كانوا أكثر الناس عملا وأقواهم أملا فى رفعة شأن دينهم وأهله ؟ لقد كان زهدهم هذا زهداً صحيحاً ، لأنه كان يهدف إلى تغليب المصلحة العامة والنهوض بإخوانهم ، لا إلى تثبيط هممهم ليقعدوا بهم مع القاعدين .

على أن الآراء إنما تقدر بعواقبها ونتائجها . فهل هناك من ينكر أن فكرة المسلمين عن القضاء والقدر كانت وبالا عليهم ؟ وإلا فما السبب فى هذا اليأس القاتل وفى كراهيتهم للعمل ؟ لو كنا نعتقد أن أعمالنا من صنع أيدينا ، وأن لنا قدرة على تغيير حالنا بخير منها لما تركنا العمل ، ولآثرنا الجد ، ولضقنا بالكسل ، ولعافت نفوسنا روح الهزل التى يزهو بها كثير منا ، مع أنها لا تعبر عن نفوس سليمة معتدلة ؛ بل تنم فى الحقيقة عن رغبة المرء فى أن يستر همه وعجزه وأساه . لقد ملك اليأس علينا قلوبنا فأصبحنا نضيق بكل شىء ونسخر من كل شىء . فلا نبحث عن معرفة ، ولا نحاول الاستماع إلى نصح ؛ بل قد نسخر من الناصحين ، ونتخذهم أضحوكة وملهاة لنا . وذلك لضعف الإحساس والقنوط من كل إصلاح . فكلنا يضحك ويسخر ، ولكنه ضحك أشبه بالبكاء . فإذا أغلظ الناصح فى نصحه أثار غضب اليائسين لا ضحكهم ؛ لأنهم يدركون عندئذ أنه يطلب إليهم أن يؤدوا واجبات لا قِبَل لهم بها لأنهم أعجز الناس عن أدائها . هذا إلى أنه لا يخطر بخيال أحد من اليائسين أن يعمل من تلقاء نفسه « ولئن تنبه خاطر للحق فى خيال أحدهم ، واستفزه داع من قلبه إلى ما يكسب ملته شرفاً ، أو يعيد إليها مجداً ، عدّه

هوساً وهذياناً أصيب به من ضعف المزاج أو خلل فى البنية ، او حسب أنه لو أجاب داعى الذمة لعاد عليه بالوبال ، وأورده موارد الهلكة ، ويُحكم لنفسه سلاسل من الجبن ، وأغلالا من اليأس ، فتغل يداه عن العمل ، وتقف قدماه عن السعى ، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه . »[1]

وفى غمرة هذا اليأس الشامل افتقد المسلمون الزعماء والهداة فلم يجدوهم ؛ لأن المصلحين والمرشدين لا ينبتون عادة فى الحجر الصلد ، ولا تثمر آراؤهم فى الأمم المتأخرة التى تفقد ثقتها بنفسها وربها . وكيف يعقل أن يوجد هؤلاء إذا لم يكن هناك صدى لنصحهم فى قلوب العامة ، وإذا لم يعترف لهم قومهم بأنهم ممتازون وقادرون على إنقاذهم ، ويقرون لهم بالرغبة المخلصة فى النهوض بهم ؟ نقول إن ظهور المصلحين فى مثل هذه البيئات اليائسة القانطة يكاد يكون أمراً مستحيلا ؛ لأن فكرة الإصلاح لا يمكن أن تسنح لخيال امرئ مادام يرى قومه مصرين على يأسهم وتخاذلهم ؛ لا يجمعهم رأى ، ولا يحفزهم أمل ، ولا يشعرون بدافع إلى العمل على قهر عوامل التدهور التى تكتنفهم من كل جانب .

ب — جبن وذل :

وإذا فقد المرء كل أمل فى صلاح أمره ويئس من ظهور من يأخذ بيده ، وأرجع كل ما يلحقه من أذى وضر إلى ضربات القضاء والقدر ، أو إلى محض الصدفة التى تتقلب مع الهوى ، أضحى فريسة للهواجس والوهم ،

(١) العروة الوثقى ص ٥٦ .

وتطرق الخوف إليه ، ترتعد فرائصه عند كل بارقة ، وتذهب نفسه شعاعا عند كل نازلة ؛ لأن الجهل بأسباب الأشياء أو نتائجها يضخّم الوهم ، ويثير الرعب ، فلا يقدم الإنسان على أيسر الأعمال وأكثرها أمناً ، فضلا عن أن يخاطر بحياته من أجل الحياة الكريمة ؛ بل يؤثر أن يخنع وأن يرضى بما لا يرضى به الحر الكريم ، ويستحب معيشة الضنك فى كنف الذل على حياة المشقة التى تتسع لها آفاق من العزة والرغد . فالرابطة وثيقة بين اليأس والجبن ؛ فإذا كان اليأس هو الذى يقعد بالأمم ويثبط الهمم فإن الجبن هو الذى ينخر فى أسس الدول ويقضى على كرامة أبنائها ، فيجعل احتمال الذل فى أعينهم هيناً ، ومذاق العبودية مستطاباً .

ذلك أن الجبان يتقبل الإهانة متذرعاً بالصبر ، ويرتضى العسف مدعياً الجلد ، ثم لا يسوؤه ، فى كثير أو قليل ، أن يقبل الجور أو يسلك أوعر المسالك إبقاء على حياته . يسخره الأجنبى أو المستبد كما تسخر الأنعام فلا يخطر بباله أن يحتج ، وقد يحرم ثمرة عمله فلا يجرؤ على المطالبة بأجر ما عمل ؛ ولو طلب إليه أن يعمل أكثر مما يطيق لما استطاع رفضاً ، لا بل يتجرع مرارات الموت فى كل لحظة — كما يقول جمال الدين — ولكنه راض بكل حال . . . هذه حياته : أضاع كل شىء فى القناعة بلا شىء » . . إنه الجبان الذى يتجشم أشق الأعمال ويعانى المكاره ، ولو بذل جزءاً يسيراً من جهده الذى يتطلبه منه سادته ، لاستطاع أن يحطم قيوده ، وأن ينال نصيباً من الحياة التى تليق بالآدميين . لكن المستعمرين والمستبدين يعلمون أن هؤلاء الجبناء ، أسقطوا أنفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الإنسانية ، ورضوا لها بما دون حقها . . وكفروا بنعمة الله فى تكوينهم على الشكل الإنسانى . . . فيعاملهم أولئك

السادات بما لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات .»[1] وهذا أمر شهدناه ، وربما ستشهده عدة أجيال مقبلة فى بعض البلاد الإسلامية التى ترزح إما تحت حكم ماوك طغاة ، وإما تحت نير الاستعمار الأوروبى .

وقد أصيب المسلمون بالجبن ، لأنهم يخافون الموت ، ويحرصون على حياة ما كان لهم أن يحرصوا عليها لو أرادوا الحق ؛ فإن الحياة الطيبة هى التى يعمل المرء للاحتفاظ بها ، ويضحى بنفسه للدفاع عنها . أما الحياة التافهة فمن العسير أن يتصور المرء كيف يشتد الحرص عليها إلى درجة ينسى معها آدميته . والجبن وليد الخوف من الموت ، فإن الجبان متى نزلت به نازلة تقبلها بالرضا والصبر ، ولم يحاول دفعها ؛ لأنه يظن أنه لو فعل لنزلت به أخرى أشد وأدهى ، وربما لقى فيها حتفه . لذا تراه يستحب هذه الحياة التافهة على أية حياة كريمة تتطلب قدراً من الشجاعة ، مع أن نظرة واحدة بين يديه . . . تكشف له أن تلك المخاوف إنما هى أوهام وأصوات غيلان ووساوس شياطين غشيته فأدهشته ، وعن سبيل الله صـــدته ، ومن كل خير حرمته الجبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام لتغتال به نفوس الإنسان ، وتلتهم به الأمم والشعوب ، وهو حبالة الشيطان يصيد به عباد الله ويصدهم عن سبيله ، هو علة لكل رذيلة . . . ولا فساد إلا وهو جرثومته ، ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه . . . هازم الجيوش ومنكس الأعلام . . . ماذا يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب الوطنية ؟ أليس هو الجبن ؟ ماذا يبسط أيدى الأدنياء لدنيئة الارتشاء أليس هو الجبن ؟ »[2]

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٠ . (٢) العروة الوثقى ص ٢٠٤ — ٢٦٥ .

ومن الأكيد أنه لابد للمطلع على أحوال الدول الإسلامية من الاعتراف أنها لم تعد تلك الدول التى يحسب لها العدو حساباً ؛ بل إنها فقدت مميزاتها الأولى ، وأهمها الشجاعة والثقة بالنفس والأمل فى النصر . فألف أهلها استبداد ملوكهم واستعباد أولى الأمر لهم . فصار الذل والهوان طبيعة فيهم ، لا يسمو بهم أمل ، ولا تحفزهم شجاعة أدبية إلى الوقوف فى وجه الطغاة والمستبدين ؛ بل إنهم ألفوا الانحدار والانحطاط بحيث لو طلب إليهم أن ينعموا بحريتهم التى تعطى لهم عفواً لما استطاعوا أن يتحرروا من ذلهم . فهم يحكمون على أنفسهم بالحطة ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، ولا ينفرون من الإهانة والتحقير ؛ بل يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجه إليهم من ذلك أياً كان . ولو حاول أحد منهم أن يرفع الذل عنهم بالخروج على الحاكم المستبد لوجد من أمره عجباً ، ولرأى قوماً من إخوانه البؤساء يدافعون عن جلاديهم ، ويفضلون أن يبقوا على ما هم فيه من ضيم لأنهم يخافون ما يأتى به الغد ، وقد يكون أسوأ من حاضرهم. فالجبن يقعدهم والذل يثنيهم عن أن يدركوا الخير بأيديهم أو بأيدى غيرهم . « وقد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة أن يحول ميلها الطبيعى من طلب الترقى إلى طلب التسفل ، بحيث لو دفعت إلى الرفعة والعزة لأبت وتألمت كما يتألم الأجهر من النور ، وإذا ألزمت الحرية تشقى وربما تفنى ، كالبهائم الآهلة إذا أطلق سراحها ... »[1]

ونحن لا نغلو فى تصوير حالهم فإن الحوادث التاريخية تكشف لنا كل

---

(١) طبائع الاستبداد . ص ٩١ .

يوم من أمثال ذلك شيئاً كثيراً يحار له العقل ، ويعجز المنطق عن تفسيره ، ولا يبرره إلا طول ما لقى القوم من ذل واستبداد ، حتى اعتقدوا أن تلك هى الحياة الطبيعية التى يجب أن يحياها الإنسان فى دار الغرور . ولو أن هؤلاء الجبناء أمنوا على أموالهم وأنفسهم وحريتهم فى القول والعمل ، ثم نزلت مصيبة بإخوانهم فى قطر آخر لما رثوا لهم ، ولا توجعوا لمصابهم ؛ بل لو ثارت طائفة من الأحرار على ملك مستبد من ملوكهم فقهرته ، واستردت لشعبها ما كان يرنو إليه من الحرية والعدل ، لوجدت كثيرا من الناقمين فى بلدها وفى البلاد الإسلامية الأخرى : ينظرون إليها شذراً ، ولا يقفون فى عدائهم لها موقف الحياد ، أو يكتفون بالتقول عليها واتهامها بالباطل ، وبتشويه أغراضها والحط من أعمالها ؛ بل قد يتجاوزون ذلك — وكثيراً ما يفعلون — إلى الكيد لها وطعنها من الخلف نذالة وخيانة أو حسداً ، فيحاولون الاتفاق مع العدو الخارجى الذى يتربص بهم الدوائر جميعاً .

وإنما يخونون إخوانهم وأنفسهم لأنهم ربما يرون فى خلاص قطر من الأقطار الإسلامية بشيراً أو نذيراً بخلاص المستعبدين فى الأرض من أبناء جلدتهم . وذلك أمر لا يرجونه ولا يأنسون إليه ، ولا يطيبون به نفساً ، لأنهم يعتقدون أن طلب الإصلاح خطر على النظام القائم عندهم ، ونذير بانقضاء عهد الذل الذى ألفوا مذاقه فأفسد طباعهم ، فآثروا الاستكانة لملوكهم المستبدين ، الذين يرون طاعتهم أمراً واجباً ، ولو كانوا يعملون ، قاصدين أو جاهلين ، على خراب بلادهم وتسليم المسلمين قطيعاً إلى الدول الأجنبية : يسخرونهم فى فلح الأرض أو يجندونهم لحروبهم . وإن مسلكا هذا شأنه ليس من نسج الخيال وإنما هو حقيقة تاريخية حتى فى عصرنا هذا ؛ فإن بعض الحكومات الإسلامية ما زالت

تؤثر الفرقة ، وترحب بالاتحاد مع المستعمرين ، مما يجعل المحايد من الأجانب يقلب كفّيه لا يفقه شيئاً من أمر الدوافع الخفية التى تحفز هؤلاء القوم إلى كراهية الخير لأنفسهم ، ثم ينتهى بأن يصفهم بأنهم غير جديرين بالحرية ، وقد لا يكون مخطئاً فى حكمه عليهم .

وهكذا أصبحت الرابطة الإسلامية مجرد كلمة تقال ، لكنها لا تعبر عن أخوة حقيقية . فالمسلمون أكثر الناس خشية أن ينسلخ أحدهم من دينه . وإذا حدث ما يخشونه عمهم الحزن ، سواء أكانوا من العامة أم من الخاصة . ومع أن هذا الحزن الشامل قد يوحى بقوة الرابطة بينهم فإنه لا يعدو أن يكون عاطفة فردية أو سطحية ، لا عاطفة اجتماعية تسوق الجمهور إلى القيام بعمل ما . وقد استدل جمال الدين الأفغانى لذلك بانقطاع الصلة الإسلامية فى عصره ؛ فإن أهل بلوخستان كانوا يشهدون بأعينهم كيف تسلل الإنجليز إلى بلاد الأفغان يحاولون احتلالها ، فلا يجيش لهم جأش ، ولا تدفعهم حمية إلى نجدة إخوانهم ومساعدتهم على عدوهم المشترك . كذلك كان الأفغانيون يرون رأى العين كيف تدخل الإنجليز فى بلاد فارس ، ثم لا يأسفون ولا تأخذهم غيرة ، كأن الأمر لا يعنيهم . هذا إلى أن الإنجليز استطاعوا أن يفتكوا بقطر إسلامى له مكانته وهو مصر ، وأن يعملوا فى أهله النار والحديد ، فلا تدب الغيرة إلى قلب أحد من أبناء الأقطار الإسلامية المحيطة بهم . وقد عجب الأفغانى لهذه الظاهرة ، أو لهذا التناقض بين العاطفة والسلوك ، وهو أن المسلمين أشد ما يكون تمسكا بعقائدهم ؛ وخشية على إخوانهم أن يرتدوا عنها ، ثم هم لا يبدون حراكا عند ما يفتك بهم السيف والنار . إن السبب فى ذلك أنهم فصلوا بين العقيدة والعمل ، وظنوا أنه من الممكن أن يظل

المسلم مخلصاً لدينه ، وأن يكون ذليلا جباناً فى الوقت نفسه ، فلا يشعر بالأسى لما يحل به أو بأخيه ، ويحسب أنه يكفيه أن يقر بالشهادة فلا يعمل عمل المسلم الحقيقى الذى تدفعه قوة عقيدته إلى أن يدفع عن نفسه ، وان يجير المستجير .

إن هناك تأثيراً متبادلا بين العقيدة والعمل ؛ لأن العقيدة القوية تدفع إلى العمل . بينما يثبّت العملُ العقيدة ، ويطبع النفس عليها حتى تترتب عليها الآثار التى تلائمها . وشبيه بذلك صلة القرابة التى تقوى وتتأكد بالتعاطف والتراحم والتزاور ، وتذوى وتضمحل بالإهمال والتقاطع . أما وقد رضى المسلمون بالذل ، ويئسوا من أنفسهم فإنهم يطمئنون إلى ماهم فيه، ويتباطئون عن نصرة إخوانهم جبناً وخوراً ، مع أنهم أثبت الناس فى عقائدهم وأشدهم حرصاً عليها ، بدليل فشل المبشرين منذ قرون فى صرفهم عنها . ومن العسير أن توجد بينهم رابطة سياسية واجتماعية قوية ، ما داموا متخاذلين متدابرين لا وحدة بينهم سوى عقيدة دينية أصبحت بمعزل عن حياتهم العملية . حقاً « إن لأبناء الملة الإسلامية يقيناً بما جاء فى شرعهم . لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه فى ذلك الدين ؟ أيحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . . . » كل ذلك لأن الجبن قد ضرب سياجاً حول النفوس ، فرضى المسلمون أن يروا أعلامهم منكسة ، وأملاكهم ممزقة ، والأجانب يتداولون أو يقترعون فيما بينهم على اقتسام ما بقى فى أيديهم ، دون أن يبدوا ما يشعر أنهم غاضبون ، أو عازمون على

الدفاع عن حوزتهم ، أو يوهم فى الأقل أنهم سيجمعون كلمتهم المفرقة ، ليقفوا أمام عدوهم صفاً واحداً .

٤ — ضعف الأخلاق وتمجيد الرذيلة

١ — الخلاف والتقاطع بين المسلمين :

ومن مظاهر انحلال الرابطة الإسلامية ، ذلك التقاطع والتدابر بين عامة المسلمين وخاصتهم ، حتى العلماء أنفسهم لم يسلموا من ذلك ، مع أنهم هم المكلفون بحفظ العقائد وإرشاد الناس فى أمر دينهم وشئون دنياهم ، وبحثهم على التعارف والتشاور سعياً وراء الاتحاد والاتفاق والعمل المشترك فيما يدفع عنهم بعض ما هم فيه من ضر . فليس ثمة صلة بين أفراد هذه النخبة الممتازة ، أو التى ينبغى أن تكون كذلك . وليست هناك مجامع تضم مختلف العلماء المسلمين على اختلاف أجناسهم وأقطارهم ، كما هو شأن المجامع والمؤتمرات العلمية فى أوروبا المسيحية . فالعالم التركى لا يعرف شيئاً عن زميله المصرى أو العراقى أو الحجازى أو الفارسى أو اليمنى أو المراكشى ، وكل من هؤلاء ليس أسعد حالا من الآخرين فى هذا الصدد . وليت الأمر وقف بهؤلاء العلماء عند هذا الحد ، فقد يتقاطعون ويتدابرون ويتخاصمون على غير معرفة ، بل إن أمرهم فى القطر الواحد أشد عجباً : لا تجمعهم صلة مودة أو محبة ؛ وكثيراً ما نراهم متحاسدين متباغضين يغتاب بعضهم بعضاً ، ويكيد بعضهم لبعض ، لا تنافساً فى العلم ، فإن مجال الدراسة والبحث أكثر اتساعا من أن يستوفوه جميعا ، فضلا عن أن يستأثر به واحد منهم .

ولكن ماذا تريد من نفوس درجت على ما درج عليه عامة المسلمين منذ قرون ، من التخاذل والتباغض والخلاف حباً فى الشر ، ورغبة عن الخير . فكل إنسان ، عالماً كان أم جاهلا ، يأبى إلا أن يهدم الآخرين ، أو يحاول الحط من أقدارهم بكل ما تواتيه به نزعة الشر التى كأنما غرست فى قلبه ، وبكل ما يدفعه إليه المثل السيء ، الذى لقيه فى بيئته الأولى ، ثم فى مجتمعه . فلقد درّب منذ أن كان غض الإهاب سليم الفطرة على اغتياب الناس ، والنهش فى أعراضهم ، وقذفهم بكل فرية ، حتى يبدو هو فى ظنه ملاكا طاهراً ، مع أننا نعلم أن هؤلاء الذين يلجأون إلى الغيبة ، ويحدون متعة دونها أية متعة فى الإيقاع بالآخرين والدس عليهم هم أدنى الناس مولداً ، وأردأهم منبتاً . ولكن ماذا تتوقع من قوم ينظر كل واحد منهم إلى نفسه ، كما لو كان مركزاً للعالم ، فلا ذكاء ولا مهارة ، ولا شرف ولا جاه ، ولا أجداد ولا أنساب ، ولا شيء إلا له وحده . (١) ولو أنت كشفت عن أمره لعلمت أنه أقل الناس حظاً فيما يدعى . وهذا هو شأن الأفراد عادة فى المجتمعات الراكدة التى تحاول سد ما تشعر به من نقص ، فتتظاهر بما ليس عندها ، وتخلع على أفرادها الألقاب التى لا يعدم السوقة بل المجرمون نصيبهم منها ، وتجهد نفسها فى ستر جهلها بادعاء المعرفة ، وفى إخفاء فقرها وسوء حالها بالفخر بثراء الآباء والأجداد .

وليس هذا الخلاف والتنافر وقفاً على العلماء والعامة ، بل للملوك فيه جانب ليس باليسير . فكل منهم يعلم ، أو يوشك أن يعلم ، أنه دمية تحركها دولة أو عدة دول أجنبية ، وهو يوقن أنه يستبد بأمر بلد جاهل متأخر ، لا يستطيع أن يفاخر به الملوك الآخرين ، ومع هذا يكاد يقتله الكبر

(١) قال أبو العلاء : يظن بنفسه شرفا وقدرا كأن الله لم يخلق سواه

فى الوقت الذى يفتك فيه الجوع والعرى برعايا جلالته ! ! وقد عجب جمال الدين الأفغانى كيف تفككت الروابط بين ملوك المسلمين على ضعفهم وحاجتهم إلى أن يشد بعضهم إزر بعض ، بدلا من أن يزهو كل منهم بنفسه فيما غير ما يوجب الزهو ، فتساءل : أليس بعجيب ألا تكون هناك سفارة للعثمانيين فى مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب ألا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين فى الشرق ؟

ولو عاش الأفغانى فى زماننا لكان أكثر عجباً لموقف بعض الدول الإسلامية تجاه البلاد العربية فى محنتها الحاضرة التى بدأت باغتصاب اليهود لفلسطين . فالخلاف قد « عم المسلمين حتى صح أن يقال لاعلاقة بين قوم منهم وقوم ، ولا بلد وبلد ، إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ، ويعتقدون مثل اعتقادهم ... وهذا النوع من الإحساس هو الداعى إلى الأسف وانقباض الصدر ، إذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبى عن ملته ، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاونته . »(١)

لقد ضاق جمال الدين صدراً بهذه القطيعة التى فرقت بين المسلمين وتساءل عن الوسيلة التى توقظ النائم من نومه ، والغافل من غفلته ، والسادر من غيه ، وما المصائب التى يجب أن تحل بهؤلاء النائمين الغافلين حتى يستيقظوا من نومهم وأحلامهم ، وحتى يذهب عنهم الوقر الذى أثقل آذانهم ؟ فأى كارثة يريدون أن تحيق بهم ، حتى تتآلف قلوب الأفراد فى هذه الأمة التى تنافرت آحادها ، وتباينت عاداتها وطباعها ؛ وحتى تتجمع الرغبات المتنافرة ، وتتقارب الآراء المتضاربة ؛ وحتى تنقشع سحائب الجهل التى حجبت آفاق الأمل

(١) العروة الوثقى ص ٩١ .

وسدت مسالك العمل ، فظن الناس أن كل قريب بعيد ، وكل سهل وعر ؟ فلا بد إذن من معرفة أسباب الخلاف حتى يسهل القضاء عليها . وإذا كان من العسير أن نقف على مقدمات مرض عضال لدى فرد من الأفراد محدود العمر ، فما بالك بتحديد أسباب آفة الشقاق بين الأقطار الإسلامية التى استفحل أمرها ، خلال هذه العصور المتطاولة ؟ لقد كان المسلمون أمة واحدة ، قوية البنية . ثم انتابتها الأمراض وتفرق شمل أبنائها ، فانقسمت إلى طوائف تعيش كل منها لنفسها وبمعزل عن غيرها . ويعتقد الأفغانى أن منشأ هذا الداء يرجع إلى أن خلفاء العباسيين تقاعسوا عن واجبهم ولم يجمعوا بين الزعامة الدينية والسيادة الزمنية فى آن واحد ، كما كان يفعل الخلفاء الراشدون ، كما يرجع من جانب آخر إلى كثرة المذاهب والفرق ، ابتداء من القرن الثالث الهجرى ، مما أدى إلى انقسام الأمة إلى عدة دول فى الشرق والغرب ، فانحطت منزلة الخلافة إلى وظيفة الملك ، وسقطت مكانتها فى النفوس ، وتناحر طلاب الملك والرياسة ، كل يغير على صاحبه . ثم استمروا فى شقاقهم وصراعهم حتى جاء جنكيز خان وخلفه فصرعوهم ، وتفرق الشمل كله ، وانقطعت روابط الأخوة بين ملوك المسلمين من جانب ، وبين رعاياهم من جانب آخر ، وافترق الناس فرقا ، كل فرقة تتبع داعياً إما إلى ملك أو مذهب ، فضعفت آثار العقائد التى كانت تدعو إلى الوحدة . . . ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب ، عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين ، بعد أن ينفذ القضاء ، ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول الزمان ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت ، كما يكون على الأموات من الأقارب ، لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة ، ولا دفع الغائلة . »

وكم ضاعت بعد جمال الدين من دويلات إسلامية ، فلم يؤد ضياعها إلا إلى حسرة عابرة ، جاءت بعد أوانها. أما حين كاد يجد الجد ، ويتحتم العمل ، فقد اتجه زعماء البلاد الإسلامية وملوكها إلى الصياح ، وتهييج عواطف الجماهير ، يغررون بهم ، ويدفعونهم إلى الموت دون سلاح وعتاد . هذا إذا بلغت النخوة بهؤلاء الزعماء أو الملوك مبلغاً قد يدهشون له هم أنفسهم . ثم تنتهى الكارثة بهزيمتهم ؛ لأنهم يتحمسون على دخل ، ويتعاونون على خيانة وخديعة . وعندئذ يصمت أساطين السياسة ودهاقين الحرب ، ينتظرون كعادتهم من سيكون منهم الفريسة التالية ، ليبدأوا صياحهم وحماسهم فى غير ما يجدى . كل ذلك وهم لا يفكرون مطلقاً فى البحث عن سبب خذلانهم ، وهو تفرق كلمتهم واختلافهم ، إلى جانب فتور هممهم ودبيب الفساد إلى أخلاقهم.

ب — اختلال المعايير الأخلاقية :

وسدر الملوك المتقاطعون فى غيهم ، واستبدوا بأمور رعاياهم ، فزاد البلاء حدّة ، وكاد الإصلاح يصبح أمراً مستحيلا . على أنه ليس للرعايا أن يسبوا الدهر وصروفه ، أو يندبوا حظهم العاثر الذى رماهم بملوك يفرقون بينهم ، وليس لهم أن يبرئوا أنفسهم من الإثم . فإن انحطاطهم لم يأت عفواً ، وإنما جاءهم بسبب خضوعهم وقبولهم للذل . ذلك أن الملوك لا تستبد برعية إلا إذا آنست فيها غفلة وخورا ، وإلا إذا لمست أن فيها جماعة من المنافقين المرائين الذين يبيعون إخوانهم بثمن بخس ، فيتقربون إلى ذوى الأمر والسلطان يمجدون ظلمهم فيسمونه حزماً ، ويبررون طغيانهم فيصفونه بأنه حكمة ومعرفة بما يجب أن تساس به الرعية .

لقد قضى الإسلام على مظاهر الوثنية وحرر النفوس من الخوف ، وأمر ألا يخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يتذلل إلا له وحده ، ولا يطيع إلا من أطاعه ؛ كما أوجب عليه أن يعصى من عصاه ، وأن يكون عزيزاً لا يعرف في الحق لومة لائم ، وأوجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كذلك أمر المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى ، لا على الإثم والعصيان. لكنهم آثروا أن يعكسوا هذه القيم الأخلاقية الكبرى التي قل أن حددها دين آخر بمثل الوضوح الذي حددها به دين الإسلام. فعبد المسلمون ملوكهم أو كادوا ، وعادوا إلى ما كان عليه أسلافهم في الشرق من الإقرار والتسليم بحكم الملوك المستبدين ، فتقربوا أذلاء منافقين إلى أمرائهم ، يمجدونهم ويؤلهونهم ، ويخلعون عليهم أسماء الخالق ، وينعتونهم بما ليس فيهم من صفات الخير ، فيصفونهم بالصلاح وهم الفساق ، وبالعدل وهم الطغاة ، وبالعلم وهم الجهلة ، وبالحجا وهم الحمق .

وكيف لا تنفق سوق الرياء في قوم انعكست في نفوسهم معايير الخلق ، فأصبحت المخازي عندهم موضعا للفخر ؟ « فصاروا يسمون التصاغر أدباً ، والتذلل لطفاً ، والتملق فصاحة واللكنة رزانة ، وترك الحقوق سماحة ، وقبول الإهانة تواضعاً ، والرضا بالظلم طاعة ، كما يسمون دعوى الاستحقاق غروراً ، والخروج عن الشأن الذاتي فضولا ، وبعد النظر إلى الغد أملا طويلا ، والإقدام تهوراً ، والحمية حماقة ، والشهامة شراسة ، وحرية القول قحة ، وحب الوطن جنوناً .»[1] وما زلنا نرى آثار هذه العقلية حتى في زماننا ، على الرغم من تقدم المسلمين وإقبالهم على العلم والأخذ بأسباب الحضارة. فإن الناس ما برحوا يبدون إعجابهم بالرجل الشرير المخاتل ، ويجدون له من الأوصاف

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي : أم القرى ص ١٣٤

التى تدل على تقديرهم له ورغبتهم فى السمو إلى مرتبته ـ نقول يجدون له من هذه الأوصاف شيئاً كثيراً يدعو إلى خجل أقل الناس حياء وتواضعاً . أما الرجل الذى لا يعرف الشر ، أو إذا عرفه صدفت نفسه عنه، فليس بالرجل الجدير بالإعجاب ، وهو الرجل الذى لا يجدون له من وصف آخر سوى الطيبة ؛ لكنهم لا يريدون بهذه الكلمة معناها ، وما أجله من معنى ، وإنما يريدون بها الغفلة أو البله .

لذا كان من الطبيعى أن تصبح لهذه البيئة الإجتماعية الشاذة قوانينها الخاصة ، التى تختلف عن قوانين المجتمعات السليمة . فالأمانة والشرف والنزاهة والإخلاص والعدالة والطيبة وغير ذلك من الصفات الضرورية لنجاح أى إمرىء فى المجتمع العادى تنقلب وبالا على صاحبها فى المجتمع الذى تنعكس فيه المعايير الأخلاقية ؛ لأنه مضطر إلى التكيف بقواعد شاذة تتناسب مع طبيعة البيئة التى يحيا فيها . فالأمين الشريف لا بد من أن يكتب له الفناء فى مثل هذه البيئة غير الطبيعية ؛ لأنه يعجز عن التكيف بها ، وعن تحديد سلوكه وتفكيره وشعوره طبقاً لما تقضى به قوانينها . وإذن فليس أقرانه مخطئين كل الخطأ عند ما يصفونه بالغباء أو الغفلة أو السذاجة ؛ لأن تعريف الذكاء هو أن يكون المرء قادراً على التكيف بالوسط الذى يعيش فيه . وبمقدار مهارته فى التكيف به ترتفع مرتبته فى الذكاء . فالماهر إذن هو الذى يستطيع تطبيق هذه المعايير الأخلاقية المعكوسة تطبيقاً حرفياً ، وبدقة تشعر أنه يطبقها بصفة تلقائية لا تكلف فيها ؛ إذ التكلف فى ذلك قد يثير الريبة فى أمره ، فيجر عليه ذلك من النوائب مالا قِبَل له به .

وهذا هو السبب فى أن من يجيد النفاق والمخاتلة والخداع والنميمة

وسائر الرذائل يصبح موضع إعجاب وتقدير لدى الآخرين من أمثاله . فهم يقدرون لديه هذه المقدرة الفائقة فى ارتكاب تلك الأفعال بمثل هذا اليسر ، كما لو كانت تصدر عن طبعه وجبلته ، دون حاجة إلى مرانة أو تدريب .

أما الذى لا يجيد الملق، أو لا يرغب فيه ، أو نُكب بعزة النفس ورقة الإحساس ، أو أصيب بالميل إلى الخير ، أو ابتلى بالجرأة فى الحق أو النفور من قبول الضيم فهو الخاسر الخليق باللوم ؛ بل بالعقاب . وهو الذى ينبغى له أن يخرج عن طبعه وخليقته أو يهلك ؛ لأنه عاجز عن التكيف بالبيئة ، وهذه لاترحم الضعيف ، ولا تسمح إلا ببقاء الأصلح . ولذلك حق لمثل هذا العاجز أن يكون موضعاً للسخرية والإشفاق ؛ لأنه يلقى بنفسه إلى التهلكة برفضه الخضوع لقوانين مجتمعه الصارمة . لقد كان خليقاً به أن يظهر الذل والضعة ، بدلا من أن يكون عزيزاً كريماً ؛ وأن يقابل القهر والضعف باللين والخضوع ، بدلا من أن يكون شديداً عنيداً فى الصراع من أجل الحق ؛ وأن يمدح طغيان المستبدين وعنفهم وينسب إليهم كل فضل ، بدلا من أن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويكشف لهم عن أخطائهم بالنصح والإرشاد . لقد كان ينبغى له أيضاً أن يكون منافقا ، وأن يكون ذليلا لا يطالب بحق ، ولا يظهر علماً أو شرفا . لكنه أبى أن يفعل . وكفى بذلك دليلا على غفلته وعدم صلاحيته للحياة فى مجتمعه . ومن هنا كان التسابق بين الأفراد : كل يريد أن يظهر مهارته ؛ ومن هنا تنبع تلك اللذة التى يشعر بها كل فرد منهم إذا انتهى إلى ما يريد بالخديعة والمكر والاحتيال وإلحاق الضرر بالآخرين . وهذا ما يفسر لنا أحيانا ؛ بل فى كثير من الأحيان ، أن هناك قوماً من الأشرار يزهون بشرورهم ، وهم آمنون من النقد والفضيحة ،

لأنهم واثقون بأن الحمقى — وهم كثيرون — سيعجبون بهم إعجابهم بالأبطال المغاوير .

وعندئذ ليس لك أن تتوقع خيراً من نصح الناصحين أو إرشاد المرشدين فى مثل هذه البيئة التى تمجد الرذيلة بالفعل ؛ بل كثيراً ما يكون هؤلاء الناصحون والمرشدون مرائين ، يقولون بأفواههم ما تكذبه أعمالهم ، أى أنهم لا يختلفون فى شىء عن الجمهور الذى يتجهون إليه . ولذا يذهب النصح والوعظ مع الريح ؛ لأنه يجرى على اللسان ولا ينبع من القلب . على أن المستمعين إليهم لا يحملون كلامهم محمل الجد . حقاً إنهم يستمعون إليهم كل يوم يحدثونهم عن الأمانة والشرف والصدق ، وكل ما يتصوره المرء من الفضائل وجميل الخصال ؛ لكنهم يرونهم أيضاً فى المناسبات الدنيوية الكبرى يسطرون المقالات التى تنضح نفاقاً وكذباً وضعة يتقربون بها إلى الحكام المستبدين الطغاة ، وهم أحق الناس بنصحهم وإرشادهم لو كان حقا ما يفعلون . كذلك يراهم الجمهور حلفاء وأولياء كل حاكم . فإذا اتفق لأمر ما أن دالت دولته لزموا جحورهم إشفاقا على أنفسهم ، وحتى يتبينوا إذا ما كان الحاكم الموسلى قد ولّى لغير رجعة ، أم أن هناك أملا فى أن يسترد سلطته . فإذا جرى القدر بغير ما يشتهون ، ورأوا أن الأمر قد استقر لمن جاء بعده انسابوا من مخابئهم يسعون إلى الحاكم الجديد ، ويتقربون إليه بطريقة ممجوجة مرذولة ، وهى أن يشيّعوا الراحل بكل ما وعته ذاكرتهم من عبارات اللعن والسباب ، ويستقبلوا القادم بكل ما كانوا يدبجونه من قصائد المدح والإطراء لسلفه .

هذا هو المجتمع الإسلامى الذى عاش فيه أمثال جمال الدين والكواكبى وغيرهما ، والذى أدرك فيه المصلحون أن لا أمل فى نهضته طالما اختلت فيه

معايير الأخلاق، ففرقت بين آحاده، ومهدت بذلك لانحلال الأمة وغلبة الأجنبي عليها. وقد وصف الأفغاني هذا المجتمع أدق وصف مبينا سبب سقوطه تحت ضربات العدو، فقال على لسان تلميذه: «وإن شئت فتخيل وقحين بذيئين سفيهين جبانين بخيلين، «كل يمنع الآخر حقه»، شرهين حاقدين حاسدين متكبرين، «كل لا يستحسن إلا فعل نفسه»، لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين، هل يمكن أن يجمعهما مقصد، أو توحد بينهما غاية؟ أليس كل وصف على حدته قاضيا بانتباذ كل من صاحبه، وإن لم تكن داعية؟ ... هذه الرذائل إذا فشت في أمة نقضت بناءها ونشرت أعضاءها ... واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الأمة قوة أجنبية عنها، لتأخذها بالقهر وتصرفها في أعمال الحياة بالقسر. فإن حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع، وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف. فلا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع إلى حد الضرورة.» (١)

فإذا غلبهم الأجانب على أمرهم جميعا لم ينقطعوا عما هم فيه من فرقة وتخاذل وصراع؛ بل يتسع لديهم مجال الاحتيال والإيقاع بالآخرين؛ فيتقرب جماعة منهم إلى المستعمر، يشرون بأخوانهم ويخونون وطنهم بل دينهم أيضا. أما الآخرون فتستحفل رذائلهم، ويزيد ضعفهم، ويشتد خذلان الله لهم؛ فيحطون من قدر أنفسهم في كل شيء، ويرمونها بالعجز عن القيام بأي عمل من الأعمال، وينظرون إلى غاصبي أرزاقهم من الأجانب نظرة الإعجاب، ويقلدونهم، فلا يحسنون ذلك أيضا؛ لأنهم لا يعنون إلا بالمظهر لتفاهة تفكيرهم، ولا يقع اختيارهم إلا على أحط مظاهر

---

(١) العروة الوثقى ص ١٣٨

الحضارة الأوروبية ؛ لأنها تتفق مع اختلال معايير الخير فى نفوسهم . ثم يظنون أنهم سوف يصلون إلى ما وصل إليه الأجانب إذا حاكوهم فى زيهم وأساليب حياتهم العادية من مأكل ومشرب وملهو . فهم يأخذون عنهم ما يتوهمون أنه دليل على التقدم . وقد لا يعدم الأجانب أن يموهوا عليهم ، فيتظاهرون أمامهم بكراهية التمسك بالدين والغلو فى الاعتزاز به . فيغلو هؤلاء من جانبهم فى تطبيق هذا المبدأ ، ويتحاشون كل ما قد يشعر أنهم يعتزون بدينهم ، ولو كانوا على حق . ولو فطنوا لعلموا أن المستعمرين أكثر تعصبا منهم لدينهم ، وأنهم أشد حرصا على نشره بينهم بكل وسيلة ، وأهمها أن يقوضوا عقائد المغلوبين على أمرهم ، حتى يأمنوا تمردهم .

كذلك رسم الأفغانى صورة صادقة تكشف عن طباع هؤلاء المغرورين بالأجانب ، والمعترفين لأنفسهم بالضعة والعجز ، فهم فى رأيه قوم أشداء فيما بينهم ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، وهم ذوو بأس شديد بعضهم على بعض ؛ بينما يرتمون على أقدام الأجانب ذلا وصغارا : « يفتخرون بالانتماء إليهم ، ويمهدون السبيل للغالبين إلى النكاية بهم ، ويمكنون مخالب المغتالين من أحشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحا ، وكل جليل منهم حقيرا . وإذا نطق الأجنبى بما يدور على ألسنة صبيانهم عدوه من جوامع الكلم ، ونفائس الحكم . وإذا غاص أحدهم بحر الوجود ، واستخرج لهم درر الحقائق ، وكشف لهم دقائق الأسرار ، عدّوه من سقط المتاع ، وقالوا بلسان حالهم ومقالهم : ليس فى الإمكان أن يكون منا عارف ، ومن المحال أن يوجد بيننا خبير . ويغلب عليهم حب الفخفخة والفخر الكاذب ... يرتابون فى نصح الناصحين ، وإن قامت على صدقهم أقطع البراهين . يسخرون بالواعظين ،

وإن كانوا فى طلب خيرهم من أخلص المخلصين ؛ يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لإعلاء شأنهم وجمع كلمتهم ، ويقعدون له بكل سبيل ... تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج لا تنتظم لأعضائه حركة . . . فساد طباعهم بهذه الأخلاق يجعلهم منبعا ومبعثا للضر ، يصير الواحد منهم كالكلب الكلِب أول ما يبدأ يعض صاحبه قبل الأجنبى . »

حقا قد اختلفت حال المسلمين قليلا عن هذه الحال التى شهدها جيل مضى، وأصبح الأجانب يحترمون المسلمين بعد أن احترم هؤلاء أنفسهم ، فأفسحوا للنابهين منهم المراتب والمناصب التى كانت وقفا على الأجانب من قبل . ولكن هذا لا يحول دون أن يكون الشوط أمامنا بعيدا . فإن الشرقى مازال يشعر بنوع من الزراية بنفسه والإعجاب بالأجنبى فى كل أموره . ويرجع هذا الشعور إلى ظاهرة واقعية، وهى أننا مازلنا نحاكى الأجانب فى توافه الأمور ، ولا ننافسهم فى جدهم وأخلاقهم التى كانت سببا فى تقدمهم .وربما أسرع المسلمون فى خطاهم نحو العزة عندما يتقدم التعليم فى بلادهم ، وعندما يتجهون إلى الناحية العملية التى تُكتسب القوة والكرامة عن طريقها .

٥ — هل الإسلام سبب فى انحطاط المسلمين ؟

١ — الحركة العقلية فى بدء الإسلام :

يزعم كثير من الأوروبيين أن تأخر المسلمين إنما يرجع إلى دينهم ، فى الوقت الذى يرى فيه علماء المسلمين أن النصرانية ، وإن امتزجت بأفكار

(١) العروة الوثقى ص ١٣٩ — ١٤٠

وثنية قديمة أهمها عقيدة التثليث، فهى خير من الوثنية المحضة ، ولكنها ليست أصلح للحضارة الإنسانية لأنها تقوم على أساس الزهد والخضوع لذوى السلطان ؛ فى حين يتم العمران بالسيادة والثروة ، والعمل من أجل الحياة الدنيا. من هذا يتبين لنا موقف التسامح الذى يقفه المسلمون من المسيحية ، ومقدار مايحيك فى صدور بعض الغلاة من المسيحيين من كراهية للإسلام إلى حد أنهم يفضلون أن يبقى اوثنيين على وثنيتهم ، بدلا من أن يعتنقوا دينا يقول بالتوحيد المحض . على أنه ليس من هدفنا أن نثير دفائن الصدور ، وكوامن الضغينة . لذلك اكتفينا بأن قلنا إن هذا الرأى هو رأى بعض الغلاة من أهل الصليب ؛ فإن المتدين منهم حقيقة أكثر تسامحا ، وأميل إلى الوفاق من هؤلاء الذين يخلطون الدين بسياسة الاستعمار ، ويريدون القضاء على كل مقاومة لدى الشعوب المغلوبة على أمرها بالطعن فى عقائدها .

وقد رأينا كيف بنى هؤلاء الزاعمون رأيهم على ما لمسوه من فكرة المسلمين عن القضاء والقدر ، وكيف أن هذه الفكرة ليست من الإسلام الحقيق فى شىء ؛ لأن هذا الدين قد شوّهه أهله على مر العصور ، بانتقالهم من عهد الحماس الدينى والتفانى فى إعلاء شأن العقيدة إلى الدعة والترف والشقاق فيما بينهم ؛ كل يتخذ النصوص الدينية ذريعة لتبرير آرائه ، سواء كان ذلك فى السياسة أم فى أمور الحياة العادية . لكن الإسلام فى عهده الأول — وهو الإسلام الصحيح — كان عقيدة واضحة صريحة لا تعقيد فيها ، ولا تميل إلى اتخاذ الأساطير والطقوس الغريبة سبيلا إلى السيطرة على

العقول ؛ بل كانت تهدف إلى تحرير الإنسان من عبوديته ،وتدعوه إلى النظر فى هذا الكون واستخدام ما سخر الله له من كائناته ، والتمتع بالحياة الطيبة فى الحدود الواسعة التى رسمها الدين ، والتقرب إلى الله بالإيمان به وحده وبرسوله الذى جاء مصداقا للرسالات السابقة ، وأداء بعض الفرائض غير المعقدة من صلاة وصوم وزكاة وحج .

وكان الطابع العقلى للإسلام أكبر حافز إلى إيمان الناس به وحرصهم عليه ، والرغبة فى تحرير الشعوب الأخرى من أوهامها وأساطيرها وعبوديتها . ويفسر لنا هذا الأمر كيف انتشر هذا الدين فى حقبة قصيرة من الزمن ، فاعتنقه أكثر من مائة مليون نفس فى أقل من مائة سنة . ذلك أنه حليف العقل والطبع ، لايحارب الفكر الحر ولا يحقر من شأنه ؛ بل يحث على استخدامه فى قبول العقيدة ، وفى تحصيل العلم .

فلما امتدت فتوح العرب شرقا وغربا كان من الطبيعى أن يشهد العالم بعث الفلسفات القديمة ، وبخاصة الفلسفة اليونانية التى كادت تنطمس معالمها بعد أن زالت دولة الأغريق . فأقبل العرب ورعاياهم من الشعوب الأخرى يعملون بجد للنهوض بالعلوم والفنون . واستعانوا فى هذا الأمر ببعض العلماء من النصارى واليهود لتحقيق تلك النهضة العقلية الكبرى .ولم يكن اختلاف العقيدة حائلا دون المشاركة والتعاون ؛ بل حظى كثير من أطباء النصارى وغيرهم بمراكز كبرى فى حاشية الخلفاء والملوك .

أما فى الناحية الدينية فكانت طائفة المعتزلة أقرب الفرق إلى روح

الدين ؛ لأنها أدركت حقيقة الإسلام ، فتمسكت بفرائضه وعقائده ، ووفقت بقدر ما استطاعت بين هذه العقائد وبين العقل الذى جعلته مقياساً لكل شىء . قد يقال : لكن هذا المسلك يوشك أن يوهن الدين ، وأن يجتث أصول العقيدة فى النفوس ؛ فإن للشرع حقيقته ، وللعقل حقيقته ، وقد تختلف الحقيقتان ؛ فإذا جعلنا العقل مقياساً لكل شىء كان معنى ذلك أننا نضحى بالدين من أجل العقل أو العلم. وليست هذه الحجة حديثة العهد فقد وجدناها لدى أصحاب الديانات الأخرى ، ممن يقولون بوجود حقيقتين ، أو ممن يسلمون صراحة بأن الدين يحتوى على عقائد تناقض العقل ؛ ومع ذلك فمن الواجب فى رأيهم أن يضحى الإنسان بعقله من أجل عقيدته . غير أن الإسلام لا يخشى العقل ؛ فإن من شروط تكليف الناس بالإيمان به أن يكونوا عقلاء . وليس من حسن السياسة فى شىء أن ينصب دين من الأديان نفسه لنصرة العقل ، ثم يحاول الحجر عليه وتقييده بالأغلال ، أو التضحية به .

لكن جمهرة المسلمين أبت أن تستمع إلى دعاة العقل ، ورأت أن تنساق وراء بعض الفقهاء الذين قالوا بضرورة الاكتفاء بالسنة والروايات التى تناقلها الخلف عن السلف ، وبعدم الخوض فى تأويل النصوص التى تبدو فى مظهرها على غير وفاق مع العقل ، مع أننا نعلم مدى الدس فى الأحاديث ، ومقدار التشويه الذى لحق العقائد بدخول كثير من أساطير الأمم الأخرى . إذ ليس لنا أن ننسى أن كثيراً من عامة المسلمين ، فى عصر الخلاف الدينى والسياسى ، لم يكونوا عرباً خلّصاً ؛ بل كانوا من أبناء أمم أخرى نصرانية أو مجوسية أو يهودية ، دخلت فى الدين الجديد ، لكنها ما زالت مشربة

بروح ديانانها القديمة ، وحريصة على تقليد الآباء والأجداد ، وعلى جعل الرواية والنقل المنبع الأول لكل شيء فى أمور الدين. وهذا هو السبب فى أن كتب التفسير تفيض بالإسرائيليات ، وبقصص وأساطير الديانات الأخرى .

فكان من الطبيعى، بعد هذا الخلط والتلفيق بين الإسلام والعقائد الأخرى، أن يتشكل هذا الدين بصورة جديدة لو اطلع عليها المسلمون الأوّل لما عرفوا فيها دينهم ، وهى تلك الصورة التى يظن الأوروبيون أنها السبب فى تأخر المسلمين وانحطاطهم . وبهذا المعنى وحده يقوم زعمهم على أساس من الواقع . أما إذا أرادوا بذلك الإسلامَ الحقيقى المجرد عن أوهام وخرافات الشعوب التى اعتنقته فإن الواقع يكذبهم . فإن التاريخ لم يشهد ، كما قلنا ، ديناً آخر جذب القلوب بمثل ما فعل الإسلام ، وما شهد أمبراطورية كبرى تنبعث من جوف الصحراء ، دون أن تكون لها مقدمات تؤذن بظهورها واتساع رقعتها فى هذا الزمن القليل مثل الأمبراطورية الإسلامية.

ولو أن المسلمين حرصوا من أول أمرهم على حماية دينهم من آراء الأمم التى دخلت فى حوزتهم لما نشأ هذا الخلاف الشديد بينهم فى أمور العقائد ، ولما اشتد الصراع الدينى بين مفكريهم ، ولما تعددت الفرق التى جاوزت السبعين عدا . لكن حدث ما كان ينبغى ألا يحدث ، فغلب أهل التقليد ، وبدأت الآراء السياسية تتخذ مسلكا آخر ؛ فبدلا من حكم الشورى الذى سار عليه الخلفاء الراشدون شهدنا ظهور النظام الملكى الاستبدادى الذى رسخت أقدامه فى الشرق وفى الغرب ، وفى الشرق على وجه الخصوص حيث ألف الناس تأليه ملوكهم فى قديم الزمن ؛ بل فى حديثه أيضاً . ومتى غلب الاستبداد على أمة قضى على أهم مميزاتها ، وعلى حرية التفكير قبل كل شيء .

ومن ثم نفهم لماذا حورب المعتزلة ، ولماذا تنكر لهم خلفاء العباسيين، بعد أن اخذوا بيدهم فى عصر المأمون والمعتصم . ذلك أن المستبد لا يخشى شيئاً أكثر من العقل الحر، الذى يأبى إلا أن يوقظ الشعوب التى غلبها الاستبداد على أمرها . ثم مابرح ملوك المسلمين وعامتهم يحاربون التفكير العقلى فى كل مكان ، حتى صرعوه عند ما قضوا على فلسفة ابن رشد فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى. فكان مصرعها إيذانا بالانتصار النهائى لأهل الجمود والتقليد . وهكذا بدأ النوم العميق الذى استغرقت فيه البلاد الإسلامية طيلة سبعة قرون ، والذى ما زال باسطا ذراعيه على كثير من هذه البلاد حتى يومنا هذا ، على الرغم من أن أفكار المعتزلة وآراءهم أخذت تُبعث من جديد ، وعلى الرغم من أن العقل قد أطلق من إساره بفضل كثير من المصلحين .

فهذا الإسلام الذى يزعم فريق من الأوروبيين أنه كان سبباً فى تدهور المسلمين ليس بالإسلام الصحيح ، وإنما كان مزيجاً من عقيدة التوحيد وأساطير الأمم الأخرى وأوهامها . وهذا المزيج الغريب الذى يظنه بعض الناس إسلاماً هو الذى انحدر بالمسلمين إلى نوع من الشرك الصريح أو الخفى الذى كان التصوف الخادع أكبر دعاته وحلفائه . ولو استطاع المصلحون أن يقنعوا الناس بضرورة تطهير عقائدهم مما شابها ، ولو أفلح هؤلاء فى الرجوع إلى المنابع الأولى التى تحجبها عنهم سحب من الأوهام والخرافات والبدع ، لعلموا أن دينهم لا يدعو إلى التواكل أو التقشف الكاذب ، وإنما هو دين وسط بين الأديان جميعها ؛ لأنه يدعو إلى ما فيه صلاح الروح والبدن ، وينادى بالجمع بين العمل للدنيا والآخرة .

ب — انتشار الإسلام على الرغم من تدهور المسلمين :

على أن ما دخل على هذا الدين من مسخ وتشويه ، لم يكن ليقاس بما طرأ على الأديان الأخرى ، لذلك لم يستطع القضاء عليه تماماً . فإن الإسلام الصحيح استمر حيا فى قليل من النفوس . وهؤلاء القلة هم الذين يكشفون عن حقيقته بين حين وحين ، فيشق طريقه حتى فى أشد عصوره ظلاما وضعفاً . ذلك أنه دين يتجه إلى العقل .ويوافق الميول الطبيعية فى الإنسان. وهذا أمر لا ينكره المبشرون أنفسهم ؛ فكثيراً ما وجدوه فى طريقهم ، وكثيراً ما يلحقهم ثم يسبقهم فى حملاتهم التبشيرية . فهم إذن أكثر الناس علماً بقوته ، وربما كانوا أكثر يقيناً بهذه القوة من بعض المسلمين ؛ فهم يعترفون منذ أكثر من مائتى سنة أن الإسلام ما تطرق إلى بلد من بلاد الوثنية إلا أسرع أهله إلى اعتناقه ، لأنه عقيدة بسيطة واضحة لا تقهرهم ولا تتطلب إليهم أن يتقبلوا أسراراً أو طقوساً يحار لها العقل أو يعجز عن فهمها ، ولأنه يحدثهم عن إله واحد ، يؤمن به هؤلاء الوثنيون فى أعماق نفوسهم ، ويطلقون عليه اسم الإله الأكبر ، ويتقربون إليه عن طريق أصنامهم أو آلهتهم المحلية ؛ وهم يقبلون عليه فى يسر لأنه يخاطبهم كبشر ، ولأنهم يرون فى مبادئه الأخلاقية أسمى المبادىء التى يمكن أن يدعو إليها دين من الأديان .

ومن المسلم به أيضا لديهم أن الاسلام يخطو خطوات هائلة فى قلب القارة السوداء على الرغم من خضوعها لدول مسيحية ، تعمل ما فى وسعها لمساعدة المبشرين على نشر العقيدة المسيحية بكل الوسائل ، ولا تضن من أجل ذلك ببذل الأموال الطائلة التى لا يفكر المسلمون عادة فى جمع عشر معشارها للدعوة إلى دينهم . غير أن الإسلام الذى لا ينصره أحد من أهله ؛ بل يحاربه

المستعمرون ، قدر طاقتهم، بمختلف الوسائل، يتخطى الحواجز وينسف الحدود ولا تقف فى طريقه سلطة دنيوية أو كهنوتية . وقد اعترف أحد المبشرين أن الإسلام لا ينظر إلى النصرانية التى تنازعه السيطرة فى أفريقيا نظرة الكراهية أو الحقد أو العداء ، لذلك فهو جدير بالسبق والفوز، وبأن يتسلل قوياً عارماً فى جميع أرجاء أفريقية .

هذا هو مايعترف به أحد المبشرين فى أوائل هذا القرن، وهاك ماتعترف به صحيفة للمبشرين فى صيف هذا العام[1] : «إن التقدم الكاثوليكى فى أفريقية يجد نفسه متخلفاً وراء خطوات العملاق التى يتقدم بها الإسلام ، الذى يحقق أيضاً تقدماً مثيراً فى أندونيسيا والهند والباكستان ، » ثم تعزى هذه الصحيفة نفسها عن هذا التقدم المذهل ، الذى يتحقق دون حاجة إلى طلب التبرعات من المؤمنين أو الإلحاح فى طلبها ، فتقول :«ومن يدرى فلربما وقفت الشيوعية فى طريق انتشار الإسلام . فإن هذا المذهب الإلحادى يعمل عمله فى بلاد الشرق الأقصى ، وهو يسيطر على ثمانمائة مليون نفس ، أى ضعف العالم الكاثوليكى على وجه التقريب . » ثم تمنى الصحيفة نفسها فتقول : « إن العالم الإسلامى نفسه ، الذى ننظر إليه كحصن منيع لا تستطيع الكاثوليكية أن تتطرق إليه ، يخضع للدعاية الشيوعية التى لم تعتقد أبداً فى مناعة الإسلام .» وتكشف لنا هذه الجملة الأخيرة عن عقلية المبشرين الذين يفضلون أن تكتسح الشيوعية البلاد الإسلامية على أن يعتنق الوثنيون الإسلام الذى يدعو إلى التوحيد ، كما تنم لنا عن الأمل الذى يداعبهم فى أن تقف الشيوعية فى طريق انتشار الإسلام فى الشرق الأقصى ، بعد أن عجزوا هم عن وقف زحفه فى أفريقية .

---

(١) La Presse Missionnaire: يونيو سنة ١٩٥٥ ، العدد الثالث والعشرين

غير أننا نقرأ فى الصحيفة نفسها أن بعض المسيحيين بدأ يسأم الصراع من أجل نشر المسيحية خارج أوروبا ،فى الوقت الذى يغزو فيه الإسلام قلب أفريقية وغيرها من البلاد ، على الرغم من آثار الضعف التى ما برحت ماثلة فى أهله ، وعلى الرغم من أنه يقال إنه كان سبباً فى انحطاطهم ! ! فمن هؤلاء الذين أخذوا يضيقون بدعاية المبشرين وحرصهم على جمع التبرعات نذكر قسيساً فرنسياً فى إحدى ضواحى باريس . لقد كتب هذا القسيس إلى صحيفة المبشرين يحتج على الطريقة التى تتبع فى جمع الأموال من المؤمنين منهم للدعاية المسيحية فى الخارج . ذلك لأن هؤلاء الدعاة وجّهوا عنايتهم إلى البلاد الأخرى فى مختلف أنحاء العالم ، لكنهم ينسون أن بلادهم فى حاجة إلى التبشير لكثرة الخارجين على المسيحية من المسيحيين أنفسهم. لقد كتب هذا المحتج: « إن نشرتكم للدعاية تثير قلقى أكثر من أن تغمرنى بالحبور . . . اتركوا لعدة لحظات شواغلكم المالية التى أوحت إليكم بكتابة هذا التهديد المطمئن لضمائر الكاثوليكيين الأخيار عندنا . . . حقاً إنكم تتقبلون أموال المسيحيين الذين يريدون إنقاذ العالم كله ما عدا وطنهم ، الذى يفقدونه الان بسبب « بورجوازيتهم » . إن هذا المال له رائحة غريبة بل رائحة كريهة . »

فكيف يقولون من جانب إن هذا الإسلام كان سبباً فى انحطاط المسلمين ، ثم يعترفون من جانب آخر أنه ما زال ينتشر رغم كل هذه العقبات ؟ وما الذى يدعو كثيرا من الأمم الوثنية إلى اعتناق هذا الدين الذى يقال لها عنه إنه سبب فى تدهور من يؤمن به ؟ وهل بلغت بهم فداحة العقل وفساد الفطرة إلى حد الإعراض عن دين الأقوياء لقبول دين الضعفاء المتأخرين ؟ أليس أولى بنا إن نقول إن هؤلاء الراغبين فى الإسلام ، لا يعرفون الحق

بالرجال ؛ بل يعرفون الرجال بالحق ، أى أنهم يؤمنون بدين من الأديان لأنه يوافق العقل والطبيعة البشرية ، ولا يقبلون على دين آخر لمجرد أن أهله أكثر مالا وأعز نفراً ؟ فهم يؤمنون بالإسلام دون أن يكونوا فى حاجة إلى رؤية أحوال أهله ؛ ولو أنهم رأوا نخبة ممتازة منهم لكانوا أكثر إقبالا على الإيمان به .

لقد أخبرنى صديقى الدكتور محمد الفحام أنه لما ذهب إلى نيجيريا منذ عدة سنوات استقبله المسلمون والوثنيون فيها ؛ بل المسيحيون من أهل البلاد ، بخير ما يستقبل به زائر . وكان فرح المسلمين به عظيما ؛ إذ طالما سمعوا من إخوانهم المسيحيين أنهم يؤمنون بدين لا يعلمون شيئاً عن أهله ولا زارهم أحد من علمائه ، ولم تعن الهيئات الإسلامية قط بأمرهم . وقال بعضهم لو أن الأقطار الإسلامية عنيت بالدعاية لدينها لما دخل إلى المسيحية — أو لما بقى على الوثنية — إلا عدد ضئيل . فهل يقال بعد ذلك إن الإسلام سبب فى تأخر المسلمين ؟ أو ليس الحق أن يقال إن تأخرهم لا يرجع إلى دينهم بل إلى أسباب أخرى ، وإنهم لو كانوا أكثر قوة ، وأشد رغبة فى نشر عقيدتهم ، لكان دينهم أسرع خطا من خطواته الحالية التى يصفها المبشرون مع ذلك بأنها خطوات العملاق ؟

حـ — الإسلام والنصرانية :

على أن هؤلاء الذين يزعمون أن الإسلام كان سبباً فى تأخر المسلمين ينسون التاريخ وعظاته ، ويبنون حكمهم على بعض المظاهر العارضة التى لا تمس جوهر الإسلام ، والتى ترجع إلى أسباب أخرى سنفصلها فيما بعد تفصيلا .

ولو نحن جاريناهم فى استدلالهم الخاطىء، ونهجنا نهجهم فى محاولة النيل من أحد الأديان السماوية ، لانتهينا مثلهم إلى القول بأن النصرانية كانت وبالا على الحضارتين اليونانية والرومانية . فقد اندثرت معالم الحضارة الأولى منذ بدء التاريخ المسيحى ، وساهم آباء الكنيسة الأول فى القضاء عليها ، فانطمست معالمها منذ ذلك الحين . ولولا أن العرب حملوا أمانة العقل والعلم كاملة ، وزادوا عليها، لما أخذها عنهم الغرب ، ابتداء من القرن التاسع الميلادى ، ولما تحركت الهمم فى أوروبا للاطلاع على فلسفة أرسطو ومنطقه ، ولما قام نفر من أبنائها للبحث عن الأصول الأولى للحضارة اليونانية ، ولما زها أهل أوروبا الآن بأنهم خلف اليونان وحملة حضارتهم وفنهم وفلسفتهم أكثر من زهوهم بمسيحيتهم .

ونستطيع أيضاً أن نترك مجال الفروض إلى مجال الحقائق فنقرر فى غير خيلاء ولا تجن أن الثقافة اليونانية لم تنتقل إلى أوروبا بمثل اليسر بل الحماس الذى لقيته عند المسلمين فى عصر المأمون ،وإنما وجدت فى دخولها إلى بلاد المسيحية عناء ما بعده عناء ؛ إذ حاربتها الكنيسة دون هوادة طيلة قرنين من الزمان ، أى فى أثناء القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وقضت بحرمان كثير من المشتغلين بالفلسفة ؛ ووصمتهم بأنهم المارقون الملحدون . فلما رأت أن الفلسفة اليونانية الملونة بلون عربى إسلامى أعز من أن تقهر لم تجد بداً من اقتباس ما يلائمها منها ، أى لتأكيد العقيدة وتثبيتها . وكان ذلك فى القرن الثالث عشر الذى نقل فيه مفكرو المسيحية ، وعلى رأسهم ألبرت الأكبر وتوماس الأكوينى ، شيئاً كثيراً من آراء المسلمين والإغريق.[1]

(١) أنظر كتابنا « الفيلسوف المفترى عليه ابن رشد » .

وليس لأحد أن يسارع إلى القول بأن الدين المسيحى أصبح منذ ذلك الحين حليفا العلم ؛ بل ظلا عدوين لدودين ، وظل العلم مرادفا للكفر والإلحاد حتى القرن السابع عشر . فلقد ارتضى آباء الكنيسة فلسفة أرسطو وأخذوا منها ما يحلو لهم ، ثم تحجر الفكر مرة أخرى ، وحورب العلم الحديث باسم الدين وباسم أرسطو. وكم عذب العلماء وقتلوا وشرّدوا فى العصور الأخيرة ، قبل أن تعترف الكنيسة بالهزيمة ، وتتجه إلى التبشير والدعاية فى الخارج بعد أن فقدت السيطرة على العقول فى الداخل !

هذا ما كان من شأن فلسفة اليونان. أما ما حل بالأمبراطورية الرومانية بعد انتشار المسيحية فيها فأمر لا يجهله المسيحيون والمسلمون على حد سواء . ذلك أن سلطان روما أخذ يتقلص ، مع مرور الحقب ، حتى وصلت روما إلى أشد درجات الانحطاط ، مع أنها كانت مركز البابوية . ثم اجتمعت لها أسباب أخرى فى القرن الماضى فاستردت بعض عزتها ومجدها ، فلعب الزهو والكبر برؤوس أبنائها ، وأرادوا إعادة مجد روما الوثنية . لكنهم فقدوا ما كانوا قد استولوا عليه من بعض بلاد أفريقيا .

فهل لنا أن نعتمد نحن أيضاً على هذه المظاهر الخادعة لنقول إن المسيحية كانت سبباً فى انحطاط الرومان والقضاء على حضارة اليونان ، وإن الوثنية كانت خيراً منها ؟ إن مثل هذا الحكم لا يصدر إلا من متعصب أو جاهل . فإنا نعلم أن العقيدة الدينية ، سواء أكانت سماوية أم غير سماوية ، ضرورية فى بناء المجتمعات والحضارات ، وأن المجتمعات البدائية التى يتقدم فيها السحر والشعوذة ، على حساب العاطفة الدينية ، تجمد وتتحجر ، ثم تتدهور وتختفى دون رجعة ؛ فى حين أن المجتمعات المتدينة التى ترتبط فيها الأخلاق بالدين

تسلك سبيل التطور، فتتقدم أو تتأخر لأسباب شتى، ولكنها لا تموت أبداً.(١) ذلك لأن الدين حاجز تتحطم عليه موجات الإلحاد التي تطغى بين آونة وأخرى، وبخاصة عند انتقال المجتمع من مرحلة إلى أخرى، ثم تعود فتنحسر، متى انتهت فترة الانتقال. فالدين، إسلامياً كان أم مسيحياً أم يهودياً أم بوذياً أم مجوسياً، أساس واقعي لكل حضارة، ولكل حياة اجتماعية؛ لأنه عماد الأخلاق التي لا حياة للأمم دونها. فإذا تدهورت العقائد الدينية في مجتمع ما ولسبب ما، ظهرت طوائف الدهريين الذين يرون أن انهيار العقائد والأخلاق نذير أو بشير بفتح الباب على مصراعيه أمام الإباحية التي ينشدونها ويغرون الناس بقبولها، زاعمين أنها نداء الطبيعة، وقانونها الأسمى.

فهناك إذن أسباب أخرى لضعف اليونان، وأهمها انتشار المذاهب الإلحادية فيها، كمذهب الأبيقوريين والكلبيين. أما سقوط روما فيرجع إلى أن المسيحية جاءتها متأخرة، بعد أن هرمت الإمبراطورية، وأتى عليها الترف والمجون والإباحية، وبدأت تغير عليها قبائل أوروبا المتبربرة. وكما أننا لا نرجع تدهور أوروبا بعد ظهور المسيح إلى أسباب دينية؛ كذلك سنظل منطقيين مع أنفسنا، فلا نقول إن تقدم هذه القارة في القرون الأخيرة يرجع إلى أن الدين المسيحي أفضل الأديان في النهوض بالأمم؛ فإن الأوروبيين أنفسهم يعترفون معنا أن الكنيسة لم تفقد مطلقاً من سلطانها وسيطرتها على النفوس مثل ما فقدت في هذه العصور الأخيرة. فللتقدم والانحطاط أسباب عديدة متشابكة. فكما يكون التقدم مثلاً نتيجة للتمسك

(١) راجع هذه الفكرة مفصلة في كتاب مبادىء علم الاجتماع الديني الذي نقلناه إلى العربية.

بالعقيدة الصحيحة ، يكون الانحطاط نتيجة لتشويه العقائد ومسخها. وكما يكون الاستبداد سبباً فى موت الأمم أو انهيارها تكون العوامل الاقتصادية والسياسية سبباً فى التخلص من عسف رجال الكهنوت الذى يقفون دائماً فى سبيل التطور ، ويدافعون دائماً عن حكم المستبدين ؛ لأن فى هذا الدفاع إبقاء على حياتهم . وربما يفسر لنا هذا كيف يضيق علماء الدين الرسميون برجال الإصلاح ، وكيف يحاربونهم باسم الدين ، حتى يطمئنوا إلى سيطرتهم على نفوس العامة .

وربما عجب المرء كيف تبدلت حال المسلمين والمسيحيين ، وربما تساءل عن الأسباب التى أدت إلى تدهور الأولين ورقى الآخرين . لقد كان المسلمون فى أول عهدهم أقوياء غزوا العالم ، وكان دينهم يحثهم على أن يكونوا أقوياء أعزاء ، فلبوا دعوته ، وأقاموا حضارة زاهرة ؛ فى حين أن الدين المسيحى بدأ بدء الضعيف الذى يدعو إلى المسالمة والزهد من إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فهل معنى ذلك أن كلاً من الفريقين ترك عقائده منذ أجيال ، وهل تخللت بعض آيات الإنجيل من حيث يدرى ولا يدرى إلى الخطب والمواعظ التى تتلى على منابر المسلمين أو ألقى شىء منها فى أمانىّ معلميهم وناشرى شريعتهم عند ما يتربعون فى محافل دروسهم ؟ وربما أمكن تفسير تقدم الأوروبيين فى العصور الأخيرة بأن الدين المسيحى انتشر فى الغرب لدى أمم لها عاداتها وتقاليدها القديمة ، فلم يغير كثيراً من طباعها ، وعقائدها المتوارثة . فتسلل إليهم الدين خفية . ومعنى هذا أن دعوة الزهد والتقشف التى جاء بها الدين المسيحى ظلت تؤثر فى الأسماع والقلوب طالما تحكم رجال

الكهنوت فى عقول أهل أوروبا طيلة العصور الوسطى، فلما تقلصت سلطتهم عادت الطباع إلى حقيقتها .

والحق عندنا أن طباع الأوروبيين بقيت على حالها تحت الطلاء المسيحى الذى سترها، والذى كانت كثافته تختلف رقة أو سُمكا تبعاً للأحوال والأعصار، حتى إذا حزب الأمر تشقق هذا الطلاء ، وتكشف عن الخصال الحقيقية التى ظلت راكدة فى النفوس دون أن تندثر ، وعندئذ تتجلى القسوة والعنف والرغبة الجامحة فى الانتقام . وإن فى عنف الحروب والثورات الأوروبية ، وفى حنقهم الرهيب على الخارجين عليهم من الأمم المستعمَرة دليلا واضحاً على أن الطباع القديمة لدى قبائل الجرمان والرومان لم تتبدل كثيراً ، وأنها إن اختفت زمناً فإنها لا تخبو جذوتها ولا تخف حدتها ؛ بل تندلع جامحة عاصفة .

وقد جرى لى حديث مع فرنسى عاش فى مصر أيام ثورتها الأخيرة ، فأظهر لى عجبه من أن هذه الثورة قد نجحت فيما أرادت ، دون أن تراق الدماء أنهاراً ، كما جرت فى فرنسا فى أيّام ثورتها الكبرى . ثم عاد يقول إن هذا التضاد لا يذهله ولا يفجأه ، فقد أتيحت له المقـــارنة بين طباع الشرقيين والأوروبيين ، فلمس ما يتصف به الأولون من السماحة والكرم والميل إلى العفو ، وما يتجلى لدى الآخرين من شدة الطباع والميل إلى الانتقام والغلو فيه . وضرب لذلك مثلا بما حدث فى فرنسا عندما حررها الحلفاء من قبضة ألمانيا ، فقال : لقد انتهز كثير من الفرنسيين هذه الفرصة لكى يسوّوا أمورهم فيما بينهم ، فسفكت دماء عشرات الألوف تحت ستار الانتقام منهم للتعاون مع العدو ، ولكن كثيراً من هؤلاء كانوا أبرياء قتلوا لأسباب

أخرى . وظننت أن محدثى يغلو بعض الشىء. غير أن أحد القسس فى الريف هناك أكّد لى هذه الرواية ، وحدّد عدد الضحايا بما يربو على مائة ألف نسمة ، أى أكثر مما قتل فى ميادين القتال بيد الأعداء . ومما رواه لى أن القتلة كانوا يأمرون ضحاياهم أن يحفروا قبورهم بأيديهم ، فإذا انتهوا من إعدادها رموهم بالرصاص . وبديهى أن مثل هذا العدوان لا يتفق مع دينهم المسيحى الذى يوصيهم ، إذا ضُرب أحدهم على خده الأيسر بأن يدير خده الأيمن ، والذى يحثهم على محبة أعدائهم . ولن نطنب فى بيان القسوة الأصيلة فى الطباع الغربية ، فإن حديث القنابل الذرية التى فتكت فى لحظات قليلة بمئات الألوف فى اليابان منذ أكثر من عشر سنوات ما زال يدور على الألسنة .

هذا هو شأن الأوروبيين الذين لم تتشبع قلوبهم بمبادىء التسامح والسلام والمحبة التى نادت وما زالت تنادى بها المسيحية . حقا استطاع هذا الدين فى أول عهده أن يصقل النفوس ، وأن يذهب بعيداً فى صقلها ، فغلب على أهله الزهد والتصوف وكراهية الحياة وزخرفها ، وساهم رجال الكهنوت فى ترغيب الناس فى هذا المسلك إلى حد كبير . فهجعت دول أوروبا عدة عصور ، ثم اجتمعت أسباب أخرى ، فغلب الطبع على التطبع ، « وعاد ما أودعه أجدادهم فى جراثيم وجودهم ضراما » ، واتجهوا إلى الفنون الحربية فبلغوا فيها مبلغاً لا يجاريهم فيه أحد . »

أما المسلمون فظلوا أقوياء ، حتى دب بينهم الصراع السياسى والدينى . وعندئذ ظهر فيهم أدعياء يتظاهرون بالورع ، فشوهوا الدين وحرفوه ، وأضافوا إليه كثيرا من العناصر الغريبة ، وظنوا أنها من جوهر الدين ، ففسدت طبائعهم الأولى ، وكفت

أيديهم عن العمل . ثم قام الزنادقة يجتثون أصول العقيدة من النفوس ، ويدعون إلى الشيوعية فى المال والنساء ، ولم يكن أدعياء رجال الدين أقل خطراً ، فقد وضعوا الأحاديث ونسبوها إلى الرسول ، واتخذوا التظاهر بالتقوى سبيلا إلى تهوين الدين وجعله لعباً ولهواً ؛ ففترت الهمم وخارت العزائم ، وانحسرت موجة العلم ، وقصر العلماء فى إرشاد العامة ، وأصبحت دراسة الدين محصورة فى طائفة خاصة . فتشويه دينهم وجهلهم إياه هو السبب فى تدهورهم ، بعد أن كانت عقائدهم السليمة هى التى خلقتهم خلقاً ، وأخرجتهم مما يشبه العدم ، وخلعت عليه القوة التى لم تخرجهم قط عن إنسانيتهم وتسامحهم وميلهم إلى العفو ، حتى قيل إن العالم لم يشهد حروبا أكثر إنسانية من حروب المسلمين .

٤ — مسئولية المسلمين :

فالمسلمون أولى الناس بأن ينسبوا انحطاطهم إلى أنفسهم ، وليس الذنب ذنب دينهم ؛ بل هم منبع هذا الشر العميم الذى حل بهم ، فأذهب نخوتهم وحميتهم ، وطبعهم بطابع الذل والصغار ، حتى أصبحوا هملا لا راعى لهم ، تتخطفهم الدول الأجنبية .

حقا إن بعض كتابهم يحاول أن يعزو تدهورهم إلى ضربات القدر ، فيقول إن الأيام دول ، وإن من سره زمن ساءته أزمان ، وإن الأمة الواحدة تتدهور وتنحدر ، وتتشتت عزائمها ، وتفسد أخلاقها ، ثم تسترد أنفاسها ، وتبدأ فى التقدم مرة أخرى ، ويكتب لها من النصر ما أراد الله لها ، ثم يدب إليها الهرم والضعف فترتد خاسئة ، حتى يقيض لها من يأخذ بيدها .

وفى رأينا أن هذا الرأى لا يفسر شيئاً ، وإنما يحيل مشكلة انحطاط أمة من الأمم على القدرة الإلهية ، كأن الناس ليسوا مسئولين عن أعمالهم ، وكأن الأسباب لا تؤدى إلى نتائجها ، وكأن القوم قد خلقوا ليساقوا رغماً عنهم إما إلى النصر والعزة ، وإما إلى الهزيمة والهوان ! !

كذلك يرجع بعضهم انحطاط الأمة الإسلامية إلى أسباب سياسية وتاريخية كحروب الصليبيين ، وهجوم التتار ، مع أننا نرى فى عصرنا الراهن ، كيف تندحر الأمم القوية فى الحروب ، فيظن أنها ماتت إلى الأبد ، فلا تنقضى سنوات قليلة حتى نراها قد استعادت قوتها ، وبدأت الأمم التى ألحقت بها الهزيمة تخطب ودها . أما المسلمون فلم ينهضوا بعد هزيمة التتار لهم وإنما زادوا تدهوراً . فالحق أن منبع الداء أقرب من هذا كله ، أى أنه يكمن فى النفوس . وليست العوامل السياسية والتاريخية إلا شروطاً مساعدة . أما العامل الأساسى فهو ضعف الأخلاق وانحلالها وفصلها عن العقيدة والفرائض الدينية ، حتى ليحسب الواحد من هؤلاء أنه يكفى أن يتقرب إلى الله بصيغ لا روح لها ، ثم هو فى حل من أن يرتكب ما يشاء من الموبقات ، وأن يوقع الضرر بمن يشاء . وقد اهتدى جمال الدين ، فى رسالته فى الرد على الدهريين ، إلى مكمن الداء ؛ وهو أن المسلمين مسئولون عما هم فيه من ضعف وهوان ، وما نزل بالمسلمين من هـــذه المذلات والإهانات ولا رزئوا بالتخريب فى بلادهم والفناء فى أرواحهم إلا بعد أن كلت بصائرهم ونغلت نياتهم ، ومازج الدغل قلوبهم ، وخربت أماناتهم ، وفشا الغش والأدهان بينهم ، ودار كل منهم حول نفسه ، لا يعرف أمة ، ولا ينظر إلى ملة ، فأصبحوا بقناة خوارة بعد أن كانت قناتهم لا تلين لغامز . . . . ولهذا ذهب المؤرخون إلى أن بداية

الانحطاط فى سلطة المسلمين كانت من حرب الصليب، والأليق أن يقال إن ابتداء ضعف المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد النيشرية (الدهرية) فى صورة الدين، وسريان هذه السموم القاتلة فى نفوس أهل الدين الإسلامى .»[1]

وكانت هذه الآراء والعقائد مقدمة لفساد الأخلاق ، فراجت سوق النفاق والملق ، واستحب المسلمون الخيانة والحقد والضغينة ، وعافوا الأمانة والمحبة والتآخى . ذلك أنهم ألفوا الخلاف ، ثم انصرفوا عن التفكير فى حاضرهم ومستقبلهم ، لا يبحثون عما عساه أن يحقق لهم خيراً ، ولا يفكرون فيما قد يدفع عنهم ضراً ؛ بل قنعوا ، لعجزهم وتخاذلهم ، بحياة خامدة راكدة ، تنحصر فى طلب المأكل والمشرب ، ولو كان المأكل لا يقيم أوداً ، ولا المشرب يحلو طعما . ولا يدور بخلدهم أن المرء لا يحيا ليأكل ويشرب وينام . وإنما ليعمل ويجد وينافس الآخرين فى الفضيلة والعلم والقوة. هذا إلى أنه قد يأخذهم الشوق إلى العمل ، وعندئذ بئس ما يعملون ؛ لأنهم يجدون فى الكيد بعضهم لبعض أقصى لذة يشعر بها المرء . إنهم يريدون أن يشعروا الناس بوجودهم . لكنهم لا يدرون كيف يفرضون أنفسهم على الآخرين بخلقهم وعملهم . فلا بأس إذن أن يشعروهم بوجودهم عن طريق إلحاق الضرر بهم ؛ لأن سبيل الشر أسهل مورداً وأقرب منالا ؛ وفيه يمتاز الآثمون ، ويسبق فيه من لا ضمير له . وقديماً قال أبو العلاء فى معاصريه :

اما إذا دعا الداعى لمكرُمة فهم قليل ولكن فى الأذى حُشُد

فإذا هم عجزوا عن الخير والشر معا، لم يجدوا مفراً من أن يقروا فى دورهم أو يلزموا مجالسهم للمشاكسة والمهاترة أو الغيبة والنميمة . تلك هى الأخلاق التى كانت منبع الضعف والتدهور ، ومن الأكيد أنها ليست بأخلاق إسلامية .

(١) رسالة الرد على الدهريين ص ٦٤ — ٦٥